مجلة المجمع العلمي العراقي

الجزء الثاني والثالث ـ المجلد الثامن والثلاثون

بغداد

شوال ١٤٠٧ هـ ـ حزيران ١٩٨٧ م

أصوات العربية
« واقعها ومستقبلها »

الدكتور حسام سعيد النعيمي
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

يمتلك الإنسان السويّ القدرة على نقل افكاره الى الآخرين ، وهذه الملكة تظهر بصور عديدة محصلتها النهائية إيصال فكرة مّا من إنسان الى إنسان . فقد تنتقل الفكرة بالإشارة الجسمية على طريقة الخرس ، كاشارة الحاجة الى الطعام أو الشراب مثلاً ، أو بتقاطيع الوجه وأوضاع العينين والشفتين ، لإفهام المقابل السرور أو الحزن أو الألم أو الغضب أو الرضا . والاشارات الجسمية تكاد تكون وسائل إفهام عالمية لما ألفه الناس من مدلولاتها على اختلاف مواضعهم ، فكانت الألفة بديلاً من الاصطلاح اللغوي على معانيها . ومن ذلك أيضاً نقل الفكرة بالخطوط والألوان ، فصورة جمجمة تحتها عظمان متقاطعان اذا وضعت على زجاجة فيها سائل مّا كان ذلك اعلاماً بأن السائل فيه خطورة (سام مثلاً) . واذا وضعت على لوحة معلقة على سياج حديد ، آذن ذلك بخطورة الاقتراب من السياج ، وهكذا . وإشارات الطرق وسائل افهام عالمية أيضاً ، كثير منها يتم إدراك معناه بسهولة ، كالسهم المنحرف باتجاه معين مشيراً الى انحراف الطريق نحو ذلك الاتجاه ، إلاّ أنها في جمهورها تستدعي معرفة ما اصطلح عليه واضعوها ، فالمثلث والدائرة مثلاً شكلان هندسيان يمكن أن يعبر بأيّ منهما عن المنع وبالآخر عن التذكير ، واختيار المثلث للتذكير والدائرة للمنع اختيار اصطلاحي لابد من معرفة سابقة به ليتم الإفهام .

وسائل نقل الفكرة بغير الصوت الإنساني ، لانسميها لغة بمصطلح الدرس اللغوي ، بل هي إشارات دالّـة مؤدية الى التواصل ، أو الفهم « كما نفهم بحمحمة الفرس كثيراً من حاجاته ، ونفهم بضُغاء السِّنَّور كثيراً من ارادته ، وكذلك الكلب ، والحمار ، والصبيّ الرضيع » (١) .

بل ذهب الجاحظ الى أبعد من هذا حين أخرج من العربية كل ما لم يكن على وَفْق نظام كلام العرب وإن كان مفهوماً عندنا ، قال : « فمن زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل ، جعل الفصاحة واللكنة ، والخطأ والصواب ، والاغلاق والإبانة ، والملحون والمعرب ، كله سواء ، وكله بياناً . وكيف يكون ذلك كله بياناً . ولولا طول مخالطة السامع للعجم ، وسماعه للفاسد من الكلام ، لما عرفه . . . . وانمـا عنى (العتّابي) إفهامك العرب حاجتك على مجاري كلام العرب الفصحاء »(١) .

ومن وسائل نقل الفكرة مما لابد فيه من اصطلاح سابق ، الأصوات الصادرة من جهاز الصوت الانساني ، واذا كانت اشارات الطرق ، والاشارات الجسمية ، وسائل تواصل وافهام عالمية ، فإن ما يعبر عنه الصوت الانساني من أفكار لا يعدو أن يكون وسيلة موضعية محدودة ، ومن هنا اختلفت معاني الأصوات المنظمة عند بني الانسان باختلاف الاصطلاح على ماتشير اليه تلك الأصوات ، واستطاعت كل مجموعة من البشر ، أو كل أمة أن تصطلح بطريقة غير مقصودة على نظام صوتي معيّن يتم به التفاهم فيما بين أفرادها .

فالإنسان إذن قد وهبت له القدرة على نقل أفكاره الى الآخرين ، وهذه القدرة يمكن أن تظهر بصور متعددة . منها الأصوات الصادرة من الجهاز الذي زُود به خِلقةً . ولكي لا نخوض مفصلاً في ثلاثية سوسير Lelangage ، Lalangue , Laparole ، نقول : إن القدرة على نقـل الأفكار نطلـق

(١) البيان والتبين ، للجاحظ ـ تحقيق عبد السلام هارون ، ١٦٢/١ ، ط ٤ ، سنة ١٩٧٥ م .

عليها ملكة التواصل الفكري ، أو اذا شئنا أن نعبر عن ذلك بكلمة واحدة قلنا « التفاكر » ، لأن في اطلاق لفظ اللغة من غير قيد على هذه الملكة مع ما قدّمناه من صور مختلفة لظهورها ابتعادا واضحاً عن حقيقة معنى كلمة لغة واشتقاقها ، وهذه الملكة وان كانت سبباً في وجود اللغة الا أنها لا تدخل في حقل الدرس اللغوي المحض ، بل هي في باب علم النفس اللغوي ، او في مجال الدرس التشريحي لوظائف قشرة المخ (٢) ، أدخل منها في باب الدرس اللغوي . وقد آثرنا في التدريس أن نترجم « Lelangage » في المفهوم السوسيري بالكينونة اللغوية ، إذ وجدنا هذه اللفظة تعني عنده العوامل التي تتضافر لتولد اللغة ، ولذلك جعل (Lalangue) جزءاً من (Lelangage) ، ووصف الثانية بتعدد الجوانب وعدم التجانس ، إذ هي (تشتمل على عدة جوانب في آن واحد كالجانب الفيزيائي (الطبيعي) ، والجانب « الفسلجي » (الوظيفي) ، والجانب « السايكولوجي » (النفسي) (٣) ، وذلك واضح أيضاً من كلامه في « ص ٢٦ » ، فالمصطلح عنده يعني الصوت اللغوي المعبر عن فكرة ، وهو جهاز النطق الذي أصدر الصوت اللغوي ، وهو الثلث الأيسر من الجزء الامامي من المخ حيث ملكة الكلام ، وهو الحالة النفسية التي تؤدي بالانسان الى نطق ذلك الصوت اللغوي ، وهوالوسط الناقل للصوت اللغوي ، وهو جهاز الاستقبال ، أي الاذن البشرية بتفصيلاتها التشريحية ، وهو عملية النقل الى الدماغ ، وهو ملكة الفهم ، المصطلح اذن يعني عند (سوسير) مجموع العوامل الفيزيائية والعضوية والنفسية التي تتضافر لتكون لغة ما إنسانية ، وأخلق بمثل هذا المصطلح أن تكون ترجمته « الكينونة اللغوية » ، فذلك أقرب الى المراد وأبعد عن اللبس .

---

(٢) أنظر : اللغة والفكر ــ د . نوري جعفر ، صـ ٤١ وما بعدهـا . مكتبة التومي ــ الرباط ١٩٧١ م .

(٣) علم اللغة العام ــ دي سوسور ، ترجمة د . يوئيل يوسف عزيز ، ص ٢٧ . ط بغداد ، ١٩٨٥ م .

أما اللغة (Lalangue) ، فهي جزء جوهري محدد من « الكينونة اللغوية » ، إذْ هي جميع صور الكلمات المخزونة في عقول جميع الأفراد في مجتمعٍ مّا ، والتي تمّ خزنها عن طريق الاستعمال الفعّال الفردي للكلام ، فهي غير كاملة في الفرد ، بل يكمل وجودها في المجموع (٤) . أما الكلام (Laparole) ، فهو الفعل اللغوي الفردي ، ولاشك في أنه ضرورة لتثبيت أركان اللغة ، كما أنه من الناحية التاريخية يأتي أولا « إذ كيف يمكن للمتكلم أن يربط فكرة مّا بصورة الكلمة اذا لم يكن قد وجد مثل هذا الربط في أحد أفعال الكلام ؟ كما أننا نتعلم لغتنا بالاصغاء الى غيرنا . فاللغة لا تستقر في الدماغ الا بعد عدد لا يحصى من الخبرات » (٤) ، وهكذا يكوّن الإنجاز اللغوي الفردي (الكلام) المادّة التي تكوّن منها المعجم اللغوي المخزون في العقل الجمعي ، ويبقى التواصل والترافد بينهما قائماً . فالكلام يثري اللغة بما يحدثه الافراد من ألفاظ يكتب لها الحياة بالاستعمال ، واللغة تمدّ الفرد بالألفاظ المخزونة في عقول مجموع أفراد المجتمع ليستعملها ويبني عليها .

وهكذا تكون الأصوات الانسانية التي رضيتها أمّةٌ مّا للتعبير عن أفكارها بنظام معين لغة تلك الأمة . وبهذا عرّف ابن جني اللغة حين قال : « أما حدّها فإنها أصوات يعبرّ بها كل قوم عن أغراضهم » (٥) . وأما الانجاز الفردي الذي ينهل من معين اللغة فهو الكلام . واللسان مرادف للغة ، بل إن النصوص الفصيحة القديمة لم تفضل استعمال لفظ اللغة وآثرت عليه لفظ اللسان ، اذ لم يرد في القرآن الكريم لفظ لغة ، وورد لفظ لسان على ما أحصاه محمد فؤاد عبدالباقي مراداً به اللغة في خمسة مواضع (٦) ، منها قوله تعالى :

---

(٤) م . ن ص ٣٢ ، ٣٨ .

(٥) الخصائص ، لابن جني ، تحقيق محمد علي النجار (١ / ٣٣ ط دار الكتب المصرية ، ١٣٧١ هـ .

(٦) المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم ـ محمد فؤاد عبد الباقي ، ص ٦٤٧ ، (مادة لسن) ، ط مصر ١٣٧٨ هـ .

(وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم) (٧) ، كما انه ليس من السهل العثور على شعر جاهلي أو من صدر الاسلام ، فيه لفظة لغة ، ولا يبعد أن يكون ذلك لمكان اشتقاق اللغة وصلتها باللغو .

فاللسان او اللغة لأمة مّا ، هو مجموع ما تمتلكه تلك الأمة من ألفاظ دالّة بنظام معيّن ، سواء منها ما كان في عقلها الجمعي أو ما كان في مدوناتها مما يمكن أن تتكلم به أو ما يولّده أبناؤها على وَفْقِ ذلك النظام .

والممارسةالفعلية للغة بالكلام تجعلها عرضة للتغيّر فيمعاني ألفاظها وتركيبها وأصواتها بمرور الزمن والذي يعنينا هنا ، التحوّل الصوتي في «صُوَيْتات» (٨) اللغة العربية وحركاتها وحروفها . فالعربية لا يحكمها قانون صوتي خاصّ يجعلها منفردة عن بقية اللغات ، بل انها تتأثر ، شأنها في ذلك شأن اللغات الأخرى ، بعوامل التحول المختلفة التي تصيب اللغات (٩) ، بَيْدَ أنها انفردت بخصوصية لا ينبغي اغفالها ، وهي تقييد أصواتها على ما هي عليه في لغة الادب يوم كانت العربية متداولة في البيوت والاسواق ، واجتهاد أبنائها في أجيالهم المتعاقبة في أن يحفظوا هذه الأصوات في لسانهم الأدبي ، ويحملوا أنفسهم على ذلك بالتعليم والمران .

وهكذا سلكت العربية بعد عصر الاستشهاد (نحو سنة ١٥٠ هـ) طريقين في كلام الناس ، الاولى : في كلامهم الأدبي ، حيث اجتهد المتكلمون في حفظ أصواتها وضبطها على ما كانت عليه يوم وصف علماء العربية هذه الأصوات .

---

(٧) سورة ابراهيم ، الآية ٤ .

(٨) راينا أن نضع لفظ « صويته » في مقابل « فونيم » .

(٩) انظر تفصيل ذلك في علم اللغة ، د . علي عبد الواحد وافي ، ص ٩٦ وما بعدها ، ط ٧ ، سنة ١٩٧٢ م ، ودلالة الالفاظ ، د . ابراهيم انيس ص ٢٠ وما بعدها ، ط ٢ ، سنة ١٩٦٣ م .

والثانية : في كلامهم في بيوتهم واسواقهم ، حيث عرض لها ما يعرض لأية لغة غير مقيّدة ، فاللغة الأدبية هي التي « تبقى عادة ثابتة الى حـــد كبير ، وتجنح نحو الاحتفاظ بكيانها » (١٠) ، الا أن طول المدة التي بقيت فيها العربية الفصيحة بعيدة عن الاستعمال الواسع لأفراد الأمّة ، وكثرة الاختلاط بالأمم الأخرى ،أدى الى تحوّل ظاهر في أصوات الناطقين بها في أسواقهم ، وتسرب شيء من ذلك الى لغة الأدب بصورة ظاهرة ، وبقي قسم آخر ينتظر فرصته للهيمنة على اللغة الادبية ، وهكذا نجد للتحوّلِ الصوتي اليوم مظهرين :

الأول : في واقع الاستعمال الفصيح .

والثاني : فيما يتوقع في مستقبل الاستعمال الفصيح .

المظهر الواقعي

اللغة الأدبية كما اشرنا قيّدت أصواتها وقواعدها ، وهي لغة الكتابة التي اتجه اليها العلماء بالدرس . أما لغة البيت والسوق ، فقد بقيت مطلقة ، ودخلها التحول الطبيعي الذي عرض للغة غير المقيّدة . وقد تنبه علماء العربية لواقع عدد من الأصوات التي لم تكن تجري على ألْسُن الفصحاء في لغة الأدب فدوّنوها على أنها أصوات غير مستحسنة ، كذلك تنبّهوا لأصوات غير شائعة في لغة الأدب ، ولكنها كانت كما يبدو شائعة في قبائل فصيحة غير مختلطة، أي أن أصواتها لم تتأثر بسبب الاختلاط باللغات غير العربية ، فاجازوا استعمالها في اللغة الأدبية . بل أجازوا قراءة القرآن بها ، لمجيء الروايات بذلك . ولعل هذه الاجازة ، أعني اجازة استعمالها في الفصيح ، كانت إقراراً بواقع لم يكونوا يملكون فيه تحويل أهل تلك الأصوات عنه ، فهي اذن أصوات من غير اللغة المقيّدة . تسربت اليها ، لأن ذلك كان في عصر الاستشهاد .

---

(١٠) علم اللغة العام ، ص ١٦٣ .

لقد ذكر سيبويه عدد أصوات العربية الأدبية (حروفها) ثم قال : « .. وتكون خمسة وثلاثين حرفاً بحروف هنّ فروع ، وأصلها من التسعة والعشرين ، وهي كثيرة يؤخذ بها ، وتستحسن في قراءة القرآن والأشعار ، وهي : النون الخفيفة ، والهمزة التي بين بين ، والألف التي تمال إمالة شديدة ، والشين التي كالجيم ، والصاد التي تكون كالزاي ، وألف التفخيم ، يعني بلغة أهل الحجاز في قولهم الصلاة والزكاة والحياة .

وتكون اثنين واربعين حرفاً بحروف غير مستحسنة ولا كثيرة في لغة من ترتضى عربيته ، ولا تستحسن في قراءة القرآن ولا في الشعر ، وهي : الكاف التي بين الجيم والكاف ، والجيم التي كالكاف ، والجيم التي كالشين ، والضاد الضعيفة ، والصاد التي كالسين ، والطاء التي كالتاء ، والظاء التي كالثاء ، والباء التي كالفاء ، وهذه الحروف التي تمّمتها اثنين واربعين ، جيدها ورديئها أصلها التسعة والعشرون ، لا تُتبيّن إلا بالمشافهة » (١١) .

والأصوات المستحسنة التي أشار اليها سيبويه وردت بأكثرها قراءات قرآنية مما يدل على أنها أصوات لقبائل فصيحة نزل بها الوحي ، أو أذن بها الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، بوحي من الله سبحانه ، قال ابن الجزري بعد أن أورد حروف العربية على مخارجها : « ولبعض هذه الحروف فروع صحّت القراءة بها ، فمن ذلك الهمزة المسهّلة بين بين ، ... ومنه ألفا الإمالة والتفخيم ، .. ومنه الصاد المشمّمة وهي التي بين الصاد والزاي .. » (١٢) . فهذه أربعة أحرف مما ذكره سيبويه نصّ ابن الجزري على مجيء القراءة الصحيحة بها ، وبقيت النون الخفيفة ، والشين التي كالجيم . أما النون الخفيفة ، فهي النون التي لا يكون لطرف اللسان عمل في اخراجها وقد سماها ابن جني

(١١) الكتاب ــ سيبويه ، ٢ / ٤٠٤ ، ط مصورة عن بولاق ١٣١٦ هـ .
(١٢) النشر في القراءات العشر ، لابن الجزري ، تصحيح علي محمد الضبّاع ، ١ / ٢٠٢ ، ط مصر غير مؤرخة .

الخفيّة ، قال : « ومن الخياشيم مخرج النون الخفيّة ، ويقال الخفيفة ، أي الساكنة » (١٣) . وهذه النون هي النون التي يرد ذكرها في أصوات العربية الأصول نفسُها ، الا ان تلك حين تجيء ساكنة متبوعة بأحد خمسة عشر حرفاً تصير حينئذ « غُنّة في الخيشوم ، لا علاج على الفم في النطق بها » (١٤) سواء كان ذلك في كلمة واحدة نحو ينقاد ، أو في كلمتين متتاليتين ، نحو : من قال ، وهذه الحروف هي القاف ، والكاف ، والجيم ، والشين ، والضاد ، والصاد ، والزاي ، والسين ، والظاء ، والذال ، والثاء ، والطاء ، والدال ، والتاء ، والفاء . « ويمكن أن نلحظ الفرق بين الصوتين بوضوح في قولنا : من عاد ، ومن قال ، فبعد أن نفتح الشفتين بالميم في الاولى ، يتصل طرف اللسان باللثة فويق الثنايا ، أو بأصول الثنايا ، ويخرج الهواء بغُنّة من الأنف بعد أن ينخفض الحَنَك اللين ، ليقفل طريق الفم أمامه . أما في الثانية ، فإن اللسان لا يمس اللثة أو أصول الثنايا بعد انفتاح الشفتين بالميم ، بل يبقى طرفه مستلقياً في الفم ، وكأنه يستعد لتنطق القاف ، وينخفض الحنك اللين ليخرج الهواء بغُنّة من الأنف . واستعداد اللسان لنطق الحرف الذي بعد النون ، يمكن ملاحظته بوضوح بأن تتنوع الحروف في التجربة ، كأن يستعمل بعدها الجيم ، والذال ، والفاء ، في مثلِ : من جاء ، من ذلك ، من فاز .

فالصوت في النونين وإن كان واحداً في الأصل ، الا أن خفاء هذه النون وتحوُّل اللسان عن موضعه في الضغط على أصول الثنايا أو اللثة ، جعل العلماء يذكرون نونين ، ويشيرون الى مخرجين » (١٥) .

(١٣) سر الصناعة ، لابن جني ، تحقيق مصطفى السقى وآخرين ، ١/٥٣ ، ط مصر ١٩٥٤ م .

(١٤) دروس في علم أصوات العربية ـ جان كانتينو ، تعريب صالح القرمادي، ص ٦١ ، ط تونس ١٩٦٦ م .

(١٥) الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني ، د . حسام سعيد النعيمي ، ص ٣١١ ، ط بغداد ١٩٨٠ م .

وعلى هذا ، فالنون الخفيّة أو الخفيفة التي ذكرها سيبويه ، ليست نوناً لهجية تختلف عن النون الفصيحة ، وإنما هي نون تعاملية ، بمعنى أنها النون التي تسمع أو تنطق في حال سكونها إذا جاءت متبوعة بواحد من الحروف الخمسة عشر التي ذكرت ، فهي كاللام التي تأتي مفخمة في بعض المواضع ، مرققة في غيرها . ولم يذكر سيبويه اللام المفخمة في الفروع . وقد كان ينبغي على هذا أن لا تورد النون الخفية في الفروع أيضاً ، ولكن يمكن أن يقال إن إيراد سيبويه إيّاها في الفروع دليل على أن الإخفاء لم يكن كثيراً أو شائعاً في الفصيح على أيامه . ولما اعتنى العلماء فيما بعد بتجويد القرآن وترتيله ، قيّدت قاعدة الاخفاء في النون ، وشاعت القراءة بذلك ، وإن كانت معروفة غير شائعة في زمن سيبويه .

أما الشين التي كالجيم ، فهي على ما ذكر ابن جني « الشين التي يقل تفشّيها واستطالتها ، وتتراجع قليلاً متصعدة نحو الجيم » (١٦) . ولم أجد فيما رجعت اليه من مظانّ مَنْ يذكر قراءة بهذا الصوت ، بل وجدت ابن الجزري يحذر القارئ من أن يكون تفشّي الشين غير بيّن في قراءته . ولو كان إقلال التفشي قراءة ، لما نبّه عليه . قال : « الشين انفردت بصفة التفشّي فليعن ببيانه ، لا سيما في حال تشديدها أو سكونها ، نحو « فَبَشَّرْناه » ، واشتراه ، و يشربون ، واشدد ، والرشد ، ولاسيما في الوقف ، وفي نحو : « شجر بينهم » ، و « شجرة تخرج » ، فليكن البيان أوكد للتجانس (١٧) . وجعل ابن يعيش الشين التي كالجيم مثل الجيم التي كالشين من حيث الصوت ، إلا أنه فرّق بينهما من حيث الاستحسان وعدمه ، وعلّل ذلك بالتعامل الصوتي قال : « وأما الشين التي كالجيم ، فقولك في أشدق : أجدق لأن الدال حرف مجهور شديد ، والجيم مجهور شديد ، والشين مهموس رخو ، فهي ضد الدال

(١٦) سرّ الصناعة ١ / ٥٦ .
(١٧) النشر ١ / ٢١٩ .

بالهمس والرخاوة ، فقربوها من لفظ الجيم قريبة من مخرجها ، موافقة الدال في الشدة والجهر . . . وأما الجيم التي كالشين ، فهي تكثر في الجيم الساكنة إذا كان بعدها دال أو تاء ، نحو قولهم في اجتمعوا ، والاجدر : اشتمعوا ، والأشدر ، فتقرب الجيم من الشين ، لأنهما من مخرج واحد ، إلا أن الشين أبين وأفشى ، فإن قيل : فما الفرق بين الشين التي كالجيم حتى جعلت في الحروف المستحسنة وبين الجيم التي كالشين حتى جعلت في الحروف المستهجنة؟ قيل : إن الأول كره فيه الجمع بين الشين والدال ، لما بينهما من التباين الذي ذكرناه . واما اذا كانت الجيم مقدمة ، كالاجدر واجتمعوا ، فليس بين الجيم والدال من التنافي والتباعد ما بين الشين والدال ، فلذلك حسن الأول ، وضعف الثاني » (١٨) .

والجيم التي كالشين ، التي جعل ابن يعيش صوتها موافقاً لصوت الشين التي كالجيم ، ذكرها ابن الجزري ، وهو يحذّر من نطق غير مستحسن للجيم ، قال : « والجيم يجب أن يتحفظ بإخراجها من مخرجها ، فربما خرجت من دون مخرجها ، فينتشر بها اللسان ، فتصير ممزوجة بالشين ، كما يفعله كثير من أهل الشام ، ومصر » (١٩) . وجيم أهل الشام ، مازالت الى يومنا هذا ممزوجة بالشين . أما جيم أهل مصر ، فيبدو أنها تغيرت الى الصوت الذي نبه عليه بقوله : « وربما نبا بها اللسان ، فأخرجها ممزوجة بالكاف ، كما يفعله بعض الناس ، وهو موجود كثيراً في بوادي اليمن » (١٩) .

وهكذا يتبين لنا أن ماذكره سيبويه على أنه من الأصوات التي تستحسن في قراءة القرآن وفي الشعر ، لم يبق منها في واقع الاستعمال الفصيح اليوم سوى النون الخفية أو الخفيفة . أما الأصوات الأخرى ، فقد نسمع شيئاً منها من بعض قراء القرآن ، كالامالة والتفخيم ، ولكن ذلك ليس مألوفاً في غير

(١٨) شرح المفصل ـ لابن يعيش ، مصورة عن ط مصر ، غير مؤرخة ١٠/١٢٧ .
(١٩) النشر ١ / ٢١٧ .

القرآن الكريم ، وصارت الإمالة والتفخيم والصاد التي كالزاي من الأصوات المألوفة في بعض اللهجات العامية ، ولاحظّ لها في الفصح . أما الشين التي كالجيم على ما فسره ابن يعيش ، فلا حظ لها في عامية أو فصيحة .

أما ما أورده سيبويه على أنه أصوات لاتستحسن في قراءة القرآن ولا في الشعر فإن به حاجة الى فضل تأمل ، ولذا آثرنا أن نتناوله على ما أورده مفصلاً :

١ – الكاف التي بين الجيم والكاف :

وهو صوت لهجي ، لا أثر له في الفصيح اليوم ، نستعمله في لهجتنا العامية في العراق بدل كاف المؤنث باطراد ، وهو صوت (تْشْ) ، قال د. عبد الرحمن أيوب وهو يتكلم على هذا الصوت : « مثل كاف التأنيث في اللهجة العراقية في مثل كتابك » (٢٠) ، وقال عنه كانتينو : « نطق مستهجن للكاف هو الكاف التي كالجيم . . فالمفروض أن يكون هذا النطق هو نطق الكاف تْشْ » (٢١) . والى هذا ذهب أيضاً د . ابراهيم أنيس ، ود . أحمد الجندي (٢٢) . وليس الصوت في عاميتنا خاصاً بكاف المؤنث ، بل هو مطرد فيها ، كما أنه يبدل من الكاف في عدد غير قليل في غير المؤنث ، كالديك ، والسمك ، وكان ، وكم ، واتّكل عليه ، ويحكي ، حيث نقول : « الديج ، والسمج ، وجان ، وجم ، وانتجل عليه ، ويِحْجي » ، ولم يستطيع هذا الصوت أن يتسرب الى الفصيح في أي موضع يستعمل فيه على ما أعلم .

٢ – الجيم التي كالكاف :

وهي الجيم التي قال عنها ابن الجزري : « وربما نبا بها اللسان ، فأخرجها

(٢٠) محاضرات في اللغة د . عبد الرحمن أيوب ، ص ١٣٠ ، ط بغداد ١٩٦٦ م.
(٢١) دروس في علم أصوات العربية ، ص ١٠١ .
(٢٢) أنظر : في اللهجات العربية د . ابراهيم أنيس ، ص ١٢٣ ، واللهجات العربية في التراث ، د . أحمد علم الدين الجندي ، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ، غير مؤرخة ، ص ٢٨٠ .

ممزوجة بالكاف » (٢٣) . وقد تسرب هذا الصوت الى ألسنة المتحدثين بالفصيحة وسنعود للكلام عليه مفصلاً في موضعه .

٣ – الجيم التي كالشين :

وهي التي قال عنها ابن الجزري : « فينتشر بها اللسان ، فتصير ممزوجة بالشين » (٢٣) . والقول في هذه الجيم كالقول في سابقتها .

٤ – الضاد الضعيفة :

والضاد الفصيحة صوت خرج من مجموعة أصوات العربية المستعملة اليوم ، فلم يعد له وجود في نطق أحد من العرب (٢٤) ، ويبدو أن الضعيفة وهي فرع على الفصيحة قد أصابها ما أصاب الأصل ، فلم يعد لها استعمال في فصيح أو عامي .

٥ – الصاد التي كالسين ، والطاء التي كالتاء ، والظاء التي كالثاء :

والذي يجمع هذه الثلاثة الأصوات أن المطبق منها يقترب من نظيره غير المطبق ، فالصاد من حروف الإطباق وهو مهموس ، نظيره المهموس غير المطبق هو السين ، والظاء من حروف الإطباق وهو مجهور ، والثاء نظيره المجهور غير المطبق ، ولا شك في أن ضعف الإطباق فيهما يؤدي الى اقتراب الصوت من نظيره غير المطبق . وهذان الصوتان ، لا نسمع لهما أثراً في لهجاتنا العامية . وقد جعل الأنطاكي الصوت الأول من أصوات النساء قال : « وكثير من عامتنا اليوم . ولا سيما المتظرفات من النساء ، والبنات اللواتي يتلقين العلم في المدارس الأجنبية . تسمعهم ينطقون كلمة « صالح » فتظنهم

(٢٣) النشر ١ / ٢١٧ .

(٢٤) انظر : التحول والثبات في أصوات العربية ـ د . حسام سعيد النعيمي ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، ص ١٠٠ ، ج ١ / م ٣٧ ، جمادى الآخرة ١٤٠٦ هـ .

يقولون « سالح » (٢٥) . ومثل ذلك قال عن الطاء التي كالتاء : « ومتظرفاتنا اليوم يقلن « تبيب » بدلاً من « طبيب » (٢٥) . وحديث الطاء والتاء ، حديث طويل ، كنا قد تقصيناه في بحثنا « التحول والثبات في أصوات العربية » ، وانتهينا فيه الى أن الطاء التي نسمعها اليوم من القراء المجيدين هي الطاء التي وصفها سيبويه ، وإن كانت مهموسة بمصطلح المحدثين ، الاّ أنها مجهورة بمصطلح القدماء ، على أن أدلة القائلين بأن الطاء الفصيحة كانت كالضاد المصرية اليوم « أي كالدال المطبقة » من القوة بمكان ، إلاّ أن الأدلة المعارضة أقوى . فإذا صح ما وصلنا اليه ، كانت الطاء التي كالتاء هي ما يسمع من غير قايل من الممثلات المصريات حيث يَنْطِقهنا قليلة الإطباق ، وهو ما نسبه الأنطاكي ايضاً الى متظرفات بلاد الشام كما مر ، وإن صح أنها كانت دالاً مطبقة ، وهو ما أسقطناه في بحثنا المذكور ، كانت طاؤنا اليوم هي الطاء التي قال عنها سيبويه إنها لا تستحسن في قراءة القرآن ولا في الشعر .

٦ — الباء التي كالفاء :

وهو صوت لا نكاد نسمعه من عربي في فصيح أو عامي ، ولعله صوت الباء المهموسة ، أي صوت « P » عند غير العرب . وقد سمعت بعضهم يلفظ اسم بغداد بباء مهموسة بعدها هاء مع اشباع فتحة الباء فيقول « باهداد » . وقد أجاز محققو كتاب سر صناعة الإعراب لابن جني أن يكون ما أطلق عليه الباء التي كالفاء باء مهموسة ، أو فاء مجهورة ، أي «تشبه الحرف P أو V) (٢٦) . والذي أميل اليه أنه باء مهموسة ، لأن صوت الفاء المجهورة نسمعه من الأعاجم بدل الواو ، لا الباء .

---

(٢٥) المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها ، محمد الانطاكي ، ١ / ٤٥ ، ط بيروت ١٣٩٢ هـ .

(٢٦) سرّ الصناعة ، ١ / ٥٨ الحاشية .

وبعد عصر الاستشهاد مضت لغة الحديث (العاميات) في تحولها وفي محاولة إدخال بعض أصواتها على الفصيحة الأدبية (لغـــة الكتابة) ، حتى وجدنا علماء التجويد يحذّرون من نطق عدد من الأصوات الفصيحة ،في قراءة القرآن بأصوات أخرى مما يدل على تسرب تلك الأصوات الى الفصيحة ، أو في الأقل اتّساع أمرها ، حتى خشي العلماء من دخولها في الفصيح : قال ابن الجزري : « والثاء حرف ضعيف . . . وكثير من العجم لايتحفظون في بيانها فيخرجونها سيناً خالصة ، والجيم يجب أن يتحفظ بإخراجها من مخرجها ، فربما خرجت من دون مخرجها ، فينتشر بها اللسان ، فتصير ممزوجة بالشين ، كما يفعله كثير من أهل الشام ومصر ، وربما نبا بها اللسان فأخرجها ممزوجة بالكاف ، كما يفعله بعض الناس ، وهو موجود كثيراً في بوادي اليمن . . . . والذال يعتنى بإظهارها . . وبعض النبط ينطق بها دالاً مهملة ، وبعض العجم يجعلها زاياً ، فليتحفّظ من ذلك ، . . . والضاد انفرد بالاستطالة، وليس في الحروف ما يعسر على اللسان مثله ، فإن ألسنة الناس فيه مختلفة ، وقلّ من يحسنه . فمنهم من يخرجه ظاء ، ومنهم من يمزجه بالذال ، ومنهم من يجعله لاماً مفخمة ، ومنهم من يشمّه الزاي . وكل ذلك لايجوز... والقاف . فليتحرز على توفيتها حقها كاملاً ، وليتحفظ مما يأتي به بعض الأعراب وبعض المغاربة من إذهاب صفة الاستعلاء منها حتى تصير كالكاف الصمّـــاء . . . . » (٢٧) .

فالتحول الصوتي اذن قديم . وقد أورد الجاحظ نماذج من هذا التحول ، عزا بعضه لعيوب اللسان ، أو للاختلاط ، أو لمحاولة غير أهل اللغة النطق بأصواتها . ومما قاله : « وأهل الأمصار إنما يتكلمون على لغة النازلة فيهم من العرب . ولذلك تجد الاختلاف في ألفاظٍ من ألفاظِ أهل الكوفة والبصرة

(٢٧) النشر ١ / ٢١٧ ـ ٢٢١ .

والشام ومصر » (٢٨) وقال : « ألا ترى أن أهل المدينة لمّا نزل فيهم ناس من الفُرس في قديم الدهر علقوا بألفاظ من ألفاظهم . . . وكذلك أهل الكوفة » (٢٩) ، وقال : « والجاري على أفواه العامة غير ذلك ، لايتفقدون من الألفاظ ماهو أحق بالذكر ، وأولى بالاستعمال . . . والعامة ربما استخفّت أقلّ اللغتين وأضعفهما ، وتستعمل ما هو أقل في أصل اللغة استعمالاً ، وتدع ماهو أظهر واكثر . . » (٣٠) . ومما ذكره من الأصوات المتحولة بسبب عيوب اللسان وغيرها (٣١) . نطق السين ثاءً ، والقاف طاءً ، والجيم زاياً ، والقاف كافاً ، والذال دالاً ، والطاء تاءً ، وغير ذلك مما تجده مبثوثاً في كتابه .

ومما مر يتبين أن الأصوات الفرعية التي أوردها سيبويه ، سواء المستحسنة منها أو غير المستحسنة ، لم يتسرب منها الى النطق الفصيح اليوم سوى فرعين من الجيم ، الا أن المتتبع لهذا النطق الفصيح في البلاد العربية يسمع أصواناً فرعية ، وانتقالاً صوتياً في عدد من أصوات العربية مما أوردنا شيئاً منه في كلام الجاحظ وابن الجزري فقد استطاعت العاميّة في عشرات من السنين أن تسرّب الى الفصيحة عدداً من أصواتها في اللسان الأدبي والنطق الفصيح ، فنحن نرى اثر الأصوات اللهجية واضحاً فيما نسمعه من المتحدث بالعربية الفصيحة ، بل إن بعض هذه الأصوات قد نازع الفصيح في قراءة المجيدين من قراء القرآن ، كالجيم المشربة صوت الشين عند بعضهم ، والضاد المحوّلة الى ظاء عند آخرين ، مما يظهر أهمية السعي للتخلص من هذا التأثير — ما أمكن ، ونقول : ما أمكن ؛ لأن صوناً واحداً من هذه الأصوات المغلوبة لم يعد

(٢٨) البيان والتبيين ١ / ١٨ .
(٢٩) م . ن ١ / ١٩ .
(٣٠) م . ن ١ : ٢٠ .
(٣١) انظر مثلاً ١ : ٣٤ ، ٣٧ ، ٥٧ ، ٦٠ ، ٧٠ ، ٧٣ .

بالإمكان العودة اليه ، لإجماع الناطقين بالعربية اليوم على تركه ، فلم نعد نعرف على وجه الدقة كيف هو صوته ، ذلك هو الضاد الفصيحة كما وصفها علماء العربية « فمن أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس مخرج الضاد . الاّ انك إن شئت تكلفتها من الجانب الأيمن وإن شئت من الجانب الأيسر»(٣٢).

ويمكن القول إن الضاد صوت خرج من الألسن العربية اليوم واضمحل منها ، فتحول الى ظاء عند قوم ، والى دال مفخمة عند آخرين (٣٣) ، فوصفه بأنه أدنى حنكي كما قال كانتينو (٣٤) ، أو سنّي مطبق انفجاري ، كما قال السعران (٣٥) . مبني على نطق بعض العرب اليوم لا جميعهم ، وهو لا يوافق نطق العرب يوم وصفت الحروف ، هذا الصوت المهجور ليس من السهل العودة اليه . ذلك « أن الصوت الذي استبدل به غيره يصير أشقّ الأصوات الغريبة على النظام وأعسرها على من يريد النطق به » (٣٦) ولاسيما أن هذا الصوت لا يجري على لسان أحد من العرب اليوم . أما الأصوات الاخرى مما سنعرض له . فهي حيّة على ألسنة أكثر العرب في الفصيح ، وإن أصابها ما أصابها عند آخرين . ولو رجعنا الى كلام ابن الجزري الذي أوردناه آنفاً ، فسنجد الأصوات التي حذر من الإتيان بها في نطق الضاد مسموعة في أيامنا . كما كانت يوم حذّر منها . فمن ذلك قوله : « فمنهم من يخرجه ظاء » ، وهو مسموع مشهور . بل إن على ذلك اليوم نطقه في العراق والجزيرة وبعض المناطق الشمالية من المغرب كالناظور وما جاورها . وقوله « ومنهم من يجعله لاماً مفخمة » . مسموع أيضاً وان كان قليلاً ، إلا أنه

---

(٣٢) سر الصناعة ١ / ٥٢ .
(٣٣) التطور النحوي للغة العربية ، برجستراسير ، نشرة د . رمضان عبد التواب ط الرياض ١٤٠٢ هـ ، ص ٢٨ .
(٣٤) دروس في علم اصوات العربية ، ص ٣٠ .
(٣٥) علم اللغة ـ د . محمود السعران ، ص ١٦٥ ط مصر ١٩٦٢ .
(٣٦) اللغة ـ فندريس ، ترجمة الدواخلي والقصاص ، ص ٦٥ ط مصر ١٩٥٠م.

يكثر في لفظ غير العرب ، ولاسيما الذين يحرصون على نطقه ضاداً فصيحة من أئمة المساجد ، فإنهم يأتون به لاماً مفخمة ، أو مطبقة . وقد سمعت بعضهم يقرأ في الصلاة (ولا الضالين) ، و « لا اللالين » ، بنطق الضاد لاماً مفخمة وايقاع أثر التفخيم على اللام التي تليها « لام الكلمة » . وقوله : « ومنهم من يشمّه الزاي » ، مسموع على قلة أيضاً من غير العرب ، كقولهم في ضابط ومضبوط ، زابط ومزبوط ، ومنه ما كان يتندّر به آباؤنا من قول بعض العجم : « التَّيَمُّم زربتان ، زربة للوجه ، وزربة لليدان » يريد : التيمم ضربتان ، ضربة للوجه ، وضربة لليدين . على أن هذا الصوت ، أعني الزاي المطبقة يسمع من اكثر أهل مصر اليوم بدل صوت الظاء لا الضاد إلا في ألفاظ قليلة لا يبعد أن تكون مما حفظوه عن غير العرب ، مثل كلمة : مزبوط .

أما قول ابن الجزري : « ومنهم من يمزجه بالذال » بالمعجمة كما ورد في المطبوع ، ففي النفس منه شيء ، ذلك أن جعل الضاد ظاءً ، أو لاماً مفخمة ؛ أو إشمامه الزاي ، فيه محافظة على الإطباق الذي في الضاد ، فالظاء مطبقة ، واللام المفخمة مطبقة ، وانما يأتي تفخيمها من ارتفاع وسط اللسان بها نحو طبق الفم ، وإشمامه الزاي يعني الحفاظ على صفتي الجهر والاطباق فيه ، وإدخال صوت الزاي عليه ، فتتكون الزاي المطبقة عوضاً عن الضاد . ولو وافقنا ما ورد في المطبوع من قوله يمزجه بالذال فسوف يؤول ذلك الى ظاء ، وهو تكرار لا فائدة منه ؛ لأن الذال اذا دخلها الإطباق فهي الظاء ، إذ الظاء هو النظير المطبق للذال . ولايكون معنى لما ذكره حينئذ ، لذا يترجح عندي انه أراد الدال المهملة . وحينئذ يؤول صوت الضاد الفصيحة الى دال مطبقة أي الضاد المصرية الحديثة ، وهي شائعة اليوم عندهم في نطق الضاد الفصيحة . وإذا كان ذلك كذلك ، أعني اذا كان ما نبه عليه ابن الجزري مزج الضاد الفصيحة بالدال حتى تخرج دالاً مطبقة ، دلّ هذا على وجود صوت الضاد

المصرية الحديثة على أيامه (ت ٨٣٣ هـ) لنطق الضاد الفصيحة كما دلّ على أنه ليس صوت الطاء كما ذهب اليه د . ابراهيم أنيس (٣٧) من أن الطاء القديمة كانت بصوت الضاد المصرية الحديثة ، ذلك أن الضاد المصرية ، أو الدال المطبقة ، انحراف في نطق الضاد الفصيحة . ولو كانت الطاء تنطق دالاً مطبقة ، لقال عن هذا النوع من الانحراف في نطق الضاد : ومنهم من يخرجه طاء . يقوّي ذلك ، أعني وجود نطق الضاد الفصيحة بالضاد المصرية الحديثة ، أي الدال المطبقة . ما ذكره ابن سينا في كلامه على الضاد ، وهو يذكر مخارج الحروف على ما كان يتذوّقه ، لا على ما ورد عند علماء العربية ، كما يبدو ذلك واضحاً من كلامه على المخارج حيث قال : « وأما الضاد ، فانها تحدث عن حبس تامّ ، عندما تتقدم موضع الجيم » (٣٨) . ومعلوم أن علماء العربية يصفون الضاد الفصيحة بأنها حرف رخو ، أي أنه لا يحدث معها حبس تام ، وأن المحدثين هم الذين وصفوا الضاد بانها صوت انفجاري ، أي ناتج عن حبس تام ، بناء على نطق الصوت عند المصريين (٣٩) .

والذي شجعني على قبول فكرة الخطأ المطبعي في قول ابن الجزري : ومنهم من يمزجه بالذال . بعد هذا ، وأن الصواب بالدال المهملة ، كثرة الأخطاء المطبعية في الكتاب ، في مثل هذا ، من ذلك مثلاً قوله : « المخرج السابع للجيم والشين المعجمة والياء غير المدّية ... ، والجيم والياء يليان السين ، وهذه هي الحروف الشجرية » (٤٠) . وواضح أن الصواب : يليان الشين ،

---

(٣٧) الأصوات اللغوية ، د . ابراهيم انيس . ص ٦٢ ط ٤ سنة ١٩٧١ م .

(٣٨) اسباب حدوث الحروف ـ ابن سينا ، مراجعة طه عبد الرؤوف سعد ، ص ١٨ ، مصر ١٣٩٨ هـ .

(٣٩) انظر مثلا علم اللغة ـ محمود السعران ص ١٦٥ ، الاصوات اللغوية ص ٥١ ، مناهج البحث في اللغة ـ د . تمام حسان ، ص ١٢٠ ، ط المغرب ١٤٠٠ هـ .

(٤٠) النشر ١ / ٢٠٠ .

بالمعجمة ؛ لأن الكلام على الحروف الشجرية ، ولا مكان للسين بينها . ومنه قوله : « ومنها الحروف المستقلة وضدها المستعلية » (٤١) . وواضح أيضاً أن الصواب : المستفلة ، بالفاء ، لقوله : « وضدها المستعلية » ، اذ صفة الاستعلاء في الحروف ضد صفة الاستفال فيها . وغير هذا كثير في الكتاب .

هذه الأصوات التي نبه عليها علماء العربية ، أو حذّر منها علماء التجويد والقراءات ، وجدت طريقها اليوم الى النطق الفصيح كما أشرنا من قبل ، وغيرها أيضاً ، وهذا أوان التفصيل .

الثاء والذال والظاء :

أطلق علماء العربية القدماء على هذه الأحرف مصطلح الحروف اللثوية ، وتبعهم في ذلك بعض المحدثين (٤٢) . وفي هذه التسمية غرابة ظاهرة ، كيف لا وقد قال سيبويه : « ومما بين طرف اللسان واطراف الثنايا مخرج الظاء والذال والثاء » (٤٣) . واللثة كما هو معلوم يراد بها مقدم الحنك بما في ذلك مَغارز الأسنان العليا ، وفي اللسان : « واللِّثَةُ مغرِز الأسنان ، والحروف اللِثَويّة : الثاء والذال والظاء ، لأن مبدأها من اللثة » (٤٤) ، وقوله : « لان مبدأها من اللّثة » لا دليل عليه من وصف علماء العربية مخارج هذه هذه الأصوات . وهذا التعليل ، ذكره ابن يعبش أيضاً فقال : « الظاء والذال والثاء من حيّز واحد ، وهو ما بين طرف اللسان واصول الثنايا ، وبعضها ارفع من بعض ، وهي لِثَوِيّة ؛ لأن مبدأها من اللِّثة » (٤٥) . ويلاحظ أن قوله :

---

(٤١) م . ن ١ / ٢٠٢ .

(٤٢) أنظر التطور النحوي ص ١٢ ودراسات في فقه اللغة د . صبحي الصالح ، ص ٩٧٩ ، ط ٣ سنة ١٣٨٨ هـ .

(٤٣) الكتاب ٢ / ٢٠٥ .

(٤٤) لسان العرب ــ ابن منظور ، نسخة مصورة عن ط بولاق ، مادة (لثي) ٢٠ / ١٠٧ .

(٤٥) شرح المفصل ١٢٥/١٠ .

« أصول الثنايا » سهو منه ، أو من الناسخ ، أو من الطابع ، والصواب : أطراف الثنايا ، كما ذكر سيبويه في وصف مخارج هذه الحروف ، وقد أوردناه آنفا ، وليس فيه ذكر اللِّثة ، أو اللِّثوية » . كذلك ورد التعليل في كتاب العين حيث قال : « والظاء والذال والثاء لثوية ، لأن مبدأها من اللِّثة » ٤٦ ولو صححنا الكتاب للخليل لنسبنا أصل التسمية اليه ، على أنه لو كان الخليل استعمل المصطلح ، لوجدناه عند تلميذه سيبويه ، إن « الذي لا يحتمل النزاع أو الشك أن نسبة هذه المصطلحات للخليل نسبة غير صحيحة ، والا فقد كنا نتوقع أن نجد لها صدى في كلام سيبويه » (٤٧) .

ولو أطلق هذا المصطلح على حروف الصفير ، لكان قولاً ؛ لأن اللِّثة تسهم في اخراجها . أو لو أطلق على حروف النطع ، لكان أجمل به وأمثل ؛ لأن مخرجها مما بين طرف اللسان وأصول الثنايا .

والثاء هو الصوت المهموس من الثلاثة . والذال نظيره المجهور ، والظاء نظير الذال المطبق . ويبدو أنه كان في اللهجات العامية في القديم نظير مطبق للثاء . هو الذي وصفه علماء العربية بأنه غير مستحسن ، ذكر ذلك سيبويه حيث قال : « .. بحروف غير مستحسنة ... والظاء التي كالثاء » (٤٨) .

هذه الأصوات الثلاثة ، طرأ عليها تغير في بعض اللهجات العربية اليوم . سمعنا ذلك بما يكاد يطّرد في الثلاثة الأصوات في أكثر مدن المغرب ، كفاس والرباط ومراكش والدار البيضاء ، وهو مسموع في بعض هذه الأصوات في ألفاظ معدودة من غير اطراد في نواحٍ أخرى من الوطن العربي ، كما سيأتي . فقد رجع اللسان قليلاً بهذه الأصوات ، ليتصل طرفه بأصول

(٤٦) العين ـ للخليل ، تحقيق د . المخزومي ، و د . السامرائي ، ١ / ٥٨ ، ط بغداد ١٤٠٠ هـ .
(٤٧) الاصوات اللغوية ، ص ١١١ .
(٤٨) الكتاب ٢ / ٤٠٤ .

الثنايا اتصالاً تاماً ، بعد ان كان يخرج هذه الأصوات باتصاله بأطراف الثنايا اتصالاً غير تام ، مما يسمح للهواء بالمرور من بينهما ، فصارت الثاء بذلك تاء ، والذال دالاً ، والظاء دالاً مطبقة أو ضاداً مصرية .

ولكي ندرك طريقة التحول الصوتي في الظاء عند اصحاب هذه اللهجة ، نذكّر بأن صوت الضاد الفصيحة عندهم قد تحول الى دال مطبقة أو ضاد مصرية ، ومعنى ذلك أن الظاء قد تحولت الى ضاد . سواء بعد تحول الضاد الفصيحة عندهم الى دال مطبقة فتم تحول الظاء الى هذه الضاء الجديدة أم مرّ تحولها بمرحلتين حيث صارت اولاً ضاداً فصيحة إن كانت تستعمل وقت تحول الظاء ، ثم تحولت الى دال مطبقة حين تحول صوت الضاد الفصيحة عندهم الى دال مطبقة .

والذي أعان على تحول الظاء الى ضاد في ألسنة هؤلاء ، هو هذا التقارض القديم بين الصوتين ، فالاضطراب فيهما قديم ، وتحول اللسان من أحدهما الى الآخر وارد، الا أن الملاحظ أن ما روي من تحول أحد الصوتين الى الآخر يكاد يقتصر على تحول الضاد الفصيحة الى ظاء (٤٩)، وليس العكس . فقد ذكر سيبويه ضاداً في الحروف غير المستحسنة ، سماها الضاد الضعيفة كما تقدم ، ذكرها كانتينو ، ونقل بيانها عن السيرافي فقال : « ومنذ القديم كان هذا الحرف المعقّد العسير على النطق عرضة للتغيير ، فقد ذكر النحاة القدامى منذ عهدهم نطقاً مستهجناً لهذا الحرف أسموه الضاد الضعيفة ، وفي شرح السيرافي للكتاب أن هذه الضاد الضعيفة كانت تنطق كالظاء أو بين الضاد والظاء » (٥٠) ، وأوردها ابن جني أيضاً من غير أن يبين المراد بها (٥١) ، وقال عنها ابن يعيش : « والضاد الضعيفة من لغة قوم اعتاصت عليهم ،

(٤٩) التطور النحوي ، ص ١٨ ــ ٢٠ ، الأصوات اللغوية ، ص ٥٠ ــ ٦١ .
(٥٠) دروس في علم أصوات العربية ، ص ٨٦ .
(٥١) سرّ الصناعة ١ / ٥١ .

فربما أخرجوها ظاء . وذلك أنهم يخرجونها من طرف اللسان واطراف الثنايا ، وربما راموا اخراجها من مخرجها ، فلم يتأت لهم ، فخرجت بين الضاد والظاء » (٥٢) ، وهذا الذي نقله كانتينو عن السيرافي ، والذي ذكره ابن يعيش ، في النفس منه شيء ، فسيبويه ما كان يعجزه أن يقول وهو يذكر هذا الصوت : الضاد التي كالظاء ، كما قال : الطاء التي كالتاء ، والظاء التي كالثاء . وقد وصف مخرج هذه الضاد الضعيفة وصفاً لا يختلف عن وصف مخرج الضاد الفصيحة (٥٣) . ولا يبعد عندي أن تكون الضاد الضعيفة هذه ضاداً فصيحة مهموسة، ذلك أن الطاء اذا صارت كالتاء فهي طاء مهموسة (نذكّر بأن الطاء مجهورة بمصطلح القدماء) . وكذلك الظاء التي كالثاء ، هي ظاء مهموسة ، والضاد ليس من مخرجها شيء فيشبهها به ، فوصفها بالضعف لما أحسه من فقدها الصوت الفرعي حين لا يهتز الوتران بها ، أو حين جرى بها النفس على مصطلحهم .

ومما ذكروه من تحول الظاء الى ضاد — على قلّته — ما اورده ابن جني من قول الشاعر :

الى اللهِ أشكو من خليل أوَدُّهُ ثلاثَ خصالٍ كلّها لي غــائض

فقالوا : أراد « غائظ » ، فأبدل الظاء ضاداً ، ويجوز عندي أن يكون « غائض » غير بدل ، ولكن من غاضه أي نقصه ، فيكون معناه أنه ينقصني ويتهضمني » (٥٤) . وذكر السيوطي في المزهر (٥٥) إحدى عشرة كلمة وردت بالضاد والظاء والمعنى واحد . خمس منها مجيؤها بالضاد هو الأصل أو الاشهر . وخمس مستوية في الاستعمال ، وواحدة الأصل فيها الظاء .

---

(٥٢) شرح المفصل ١٠ / ١٢٧ — ١٢٨ .
(٥٣) الكتاب ٢ / ٤٠٤ .
(٥٤) سرّ الصناعة ١ / ٢٢٢ .
(٥٥) المزهر للسيوطي ، تحقيق جاد المولى وصاحبيه ١ / ٥٦١ — ٥٦٣ ، ط الحلبي غير مؤرخة .

وقد وردت الظاهرة في بعض القراءات مما يشير الى قدمها ، ففي سورة التكوير آية ٢٤ ورد قوله تعالى : (وما هُوَ على الغيْبِ بِضَنِينٍ) : قال أبو زرعة : « قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكِسائي : (وما هو على الغيب بظنين) بمعنى : ما هو بمتّهم على الوحي أنه من الله ، ليس محمد ، صلى الله عليه وسلم ، متهماً . وقرأ الباقون (بضنين) بضاد ، أي ببخيل ، يقول : لا يبخل محمد ، صلى الله عليه وسلم ، بما آتاه الله من العلم والقرآن ، ولكن يرشد ويعلّم ويؤدي عن الله جل وعز » (٥٦) . وروى أبو علي القالي في أماليه : أن رجلاً قال لعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه : يا أمير المؤمنين ، أيضحى بضبي ؟ قال : وما عليك لو قلت : بظبي ؟ قال : إنها لغة ، قال : انقطع العتاب ولا يضحى بشيء من الوحش » (٥٧) . فهذه الرواية فيها إشارة الى أن بعض العرب جعل الظاء ضاداً ، وزعم أن ذلك لغة في الظبي ، لم يسمعها عمر .

و أكثر من رأيناه من أهل المغرب اليوم ينطق الضاد دالاً مفخمة ، إلا في المغرب الشرقي كما في وجدة وبركان والناظور ، حيث يلفظونها ظاءً ، والذين يلفظون الضاد دالاً مفخمة ينطِقون ما هو بالظاء في الأصل بهذه الضاد أيضاً ، فالحرف الأول في ضرب ينطق دالاً مفخمة ، ومثله الحرف الأول في ظلم ، إذ ينطق دالاً مفخمة أيضاً ، ولذا لا يُفرق عندهم بين الصوتين . وهذا معاكس كل المعاكسة لنطق أهل المغرب الشرقي ولنطق العراقيين أيضاً ، حيث ينطق الصوتان بالظاء الفصيحة ، أي ظرب وظلم . وقد انتقل هذا النطق الى الفصيح . والطلبة في المغرب وفي العراق يبذلون جهداً كبيراً كي يتقنوا

(٥٦) حجة القراءات لأبي زرعة ، تحقيق سعيد الأفغاني ط ٢ ص ٧٥٢ ، بيروت ١٣٩٩ هـ .

(٥٧) ذيل الامالي والنوادر ــ لابي علي القالي ، ص ١٤٢ ، مصورة عن طبعة مصر .

كتابة الضاد والظاء ، ومع ذلك يقعون في الخطأ ؛ لأن آذ انهم لم تسمع نطقاً مختلفاً للحرفين ، بل إنهما ينطقان بصوت واحد ، سواء أكان بضاد مصرية كما في اكثر نواحي المغرب ، أم بظاء فصيحة كما في العراق والمغرب الشرقي فحينما نقول مثلاً : ضل زيد في البستان ، وننطقها دالاً مفخمة في المغرب ، لايستطيع السامع أن يقطع أنعني بقي ، أم تاه ، أي : لو كتبتها اتكتبها بالضاد أم بالظاء ؟ والجملة نفسها ننطقها في العراق : ظل زيد في البستان ، وحينئذ لايعلم أتريد بقي أم تاه أيضاً ؟ أي : أتكتب بالظاء أم بالضاد ؟ وقُل مثل ذلك عن نطق الخض ، أي : الحث . والحظ : أي الجد والبخت ، والضن ، أي : البخل ، والظن ، أي : الحسبان أو الالتهام ، والعض الذي يكون بالأسنان ، والعظ لصق الخصم بالأرض . وقد جمع ابن مالك طائفة من الألفاظ التي تكون بالضاد بمعنى . وبالظاء بمعنى آخر ، في كتابة « الاعتماد في نظائر الظاء والضاد » (٥٨) أربت على الثلاثين . ومما ورد فيه : الحاضر اسم فاعل ، من : حضر يحضر فهو حاضر ، وهو الشاهد المقيم ضد الغائب . وأما الحاظر بالظاء ، فاسم فاعل ، من حظرت الشيء حظراً اذا منعته ، وهو ضد الإباحة (٥٩) . ومنه الغيض والغيظ . فاما الغيض بالضاد . فمصدر غاض الماء اذا قلّ ونضب . وأما الغيظ بالظاء ، فمصدر غاظه إذا اغضبه . ومنه الفض والفظ . فأما الفض بالضاد ، فمصدر فضّ الشيء إذا كسره وفرّقه . وأما الفظ بالظاء ، فهو الرجل الغليظ القلب المتجهم . ومنه الناضر والناظر . فأما الناضر بالضاد ، فاسم فاعل ، من : نضر الله الشيء إذا نعمه وحسنه فهو ناضر ، قال الله جل ثناؤه : (وجوهٌ يومئذٍ ناضرة) ، واما الناظر بالظاء فاسم فاعل ، من : نظر ينظر فهو ناظر ، وهو المتأمل الشيء بالعين .

---

(٥٨) مجلة المجمع العلمي العراقي ج ٣ م ٣١ ، سنة ١٩٨٠ تحقيق د . حاتم الضامن .

(٥٩) م . ن ، ص ٢٢ – ٢٣ .

ومنه النضير والنظير ، فأما النضير فالشيء البهيج ، والنضير الذهب . . وأما النظير بالظاء ، فالمثل ، يقال : فلان نظير فلان إذا كان مماثلاً له (٦٠) .

والمخلص عندي من هذا اللبس أن يصار الى نطق الضاد دالاً مفخمة ، أي ضاداً حديثة ، وأن ننطق الظاء ظاء فصيحة ، يلتزم بذلك المعلمون ، ويلزمونه لطلبتهم ، وتلتزم به أجهزة الإعلام . ولا شك في أن الزمن وشيوع الاستعمال كفيلان بتثبيت هذين الصوتين والقضاء على هذا المشكل الذي يعاني منه الكثيرون من المتحدثين بالعربية في المشرق والمغرب على حدٍّ سواء .

والذين يجعلون الظاء ضاداً حديثة أو مفخمة ، رجعت عندهم الظاء والثاء والذال الى الوراء ، فصارت الظاء ضاداً حديثة ، والثاء تاء ، والذال دالاً . وبذلك تحولت الأصوات من الرخاوة الى الشدة ، وانتقلت دلالة الألفاظ في كثير مما دخله هذا التغيير ففي العربية من الألفاظ ما يتفق في أصلين ، ويختلف في الثالث بين الثاء والتاء ، والذال والدال ، والظاء والضاد ، أما الظاء والضاد فقد أوردنا شيئاً من الألفاظ التي يؤدي توحيد نطقهما فيها الى معنيين . وأما الثاء والتاء ، فقد التقطنا من اللسان مما يدخل تحت هذا الباب ألفاظاً منها : البحث الذي هو التفتيش يؤول بالتاء الى البحت وهو الصَّرف ، والبثّ أي النشر يصبح البتّ وهو القطع ، والمؤنث الذي هو عكس المذكر ، يصبح المؤنت بمعنى المُحسّد ، والتثريب أي اللوم يؤول الى التتريب وهو التلطيخ بالتراب ، والثرثرة التي هي التدفق وكثرة الكلام لفظ الترترة وهي التحريك ، والثلّ : الهدم ، والتلّ الجذب ومنه قوله تعالى (وتَلَّهُ لِلْجَبِينِ) (٦١) والثور الحيوان المعروف ، والتور إناء يشرب فيه ، وأثمر الرجل : كثر ماله ، وأتمر : صار ذا تمر ، والمثابة : المنزل ، والمتابة : التوبة ، وثوّاه : أسكنه ، وتوّاه : أهلكه ، والحثّ : الحضّ ، والحتّ : الفرك ، وختر اللبن : تماسك ، وختر :

(٦٠) م . ن ٤١ ـ ٤٩ .
(٦١) سورة الصافات ، الآية ١٠٣ .

غدر . وقد كنت أشفق على مقدمة إحدى فِقر « الرائي » (٦٢) في مدينة الرباط وهي تقرأ العنوان (التراث الاصيل) وهي فقرة أسبوعية ، فتارة نسمعها منها : الثراث بثاءين ، وأخرى : الثراث بثاء فتاء ، وثالثة : التراث بصورتها الصحيحة .

ومن العرب من يجعل الثاء سيناً ، ولاسيما في مصر وبعض بلاد الشام فالمثقف في لفظه مسقّف ، وثار : سار ، والثَّلْم : السَّلْم ، وتشبث بالشيء تشبس ، وتعثر : تعسّر ، وعاث : عاس ، والغثّ : الغس ، وحينما سُئلت ممثلة مصرية معروفة عن اسمها غيرِ الفنيّ ، قالت : انه لايختلف عن اسمها الفنيّ ، فهي (سناء) بالسين وليس بالثاء ، مما يظهر احساسها بالاضطراب الصوتي الحاصل بسبب الانتقال من الثاء الى السين ، وفي تمثيلية مصرية يظهر الأستاذ غضبه الدائم من أحد طلابه ، لأنه كتب له حيثما بالسين . ولست أدري كيف يستطيع الطالب أن يكتبها بالثاء وهو لايكاد يسمع من المتحدثين بالفصيحة ممن يسمعهم إلاّ حَيْسُ وحيْسُما ؟ .

والذين تحولت الثاء عندهم الى سين يميلون الى أصوات الصفير كما يبدو ، فقد تحولت الظاء عندهم في كثير من الألفاظ الى الصوت الذي جعله سيبويه في أصوات الصفير المستحسنة . وهو الصاد التي كالزاي ، أو كما قال ابن الجزري : الصاد المشمّمة ، وهي التي بين الصاد والزاي ، أو كما عبرنا عن ذلك بقولنا : الزاي المطبقة أو المفخمة . فالظلم عندهم يلفظ : الزلم ، والظن: الزن ، وظلّ : زَلّ . . وهكذا .

أما الذال ، فقد جعلها بعض العرب اليوم دالاً ، وجعلها غيرهم زايا . فالعذل الذي هو اللوم يصبح عدلاً عند قوم ، وعزلاً عند آخرين ، وذَرّ:

---

(٦٢) لفظة اقترحها الأستاذ علي الطنطاوي في مقابل « تلفزيون » ، وهي فاعل بمعنى مفعول .

يؤول الى دَرّ أو زرّ ، وذلّ : دلّ أو زلّ ، وبـذل : بدّل أو بزّل ، وحذّره : حدّره أو حزّره ، وحذّ : حدّ أو حزّ ، والمعذّر : تؤول الى المعزّر ،وذَبّ دَبّ ،وذاد : زاد ، وبذأ الرجل الامر أي كرهه تصبح بدأه أي دخل فيه .

ورجوع هذه الأصوات الى الوراء وتحولها من الرخاوة الى الشدة ، ظاهرة قديمة ، قال كانتينو : « ولهذه الحروف الرخوة التي مخرجها من بين الأسنان نزعة منذ القدم الى الانقلاب حروفاً شديدة أسنانية ، وذلك في بعض لهجات المناطق المتاخمة للهجات آرامية ، من ذلك مانجده في المركومات اليونانية في حوران وفي تركونيديت وفي بلاد الأنباط من تصوير الثاء في الأسماء العربية بواسطة التاء اليونانية ، لا الثاء اليونانية » (٦٣) . ومن حديث تحول الثاء تاء ما ذكره طه باقر من أن كلمة كمثرى تنطق بالأرامية كمترى بالتاء (٦٤) ، وكلمة برغوث تنطق في الأوغاريتية بالتاء أيضاً برغوت » (٦٤) .

أما انتقال الذال الى دال ، فمما ورد منه في اللغات الجزرية (السامية) كلمة أذان العربية ، التي صارت بعد الاسلام تعني النداء لمواعيد الصلاة ، وهي في الأصل بمعنى الإعلام (ففي الأكدية توجد كلمة أدانو بكثرة ، وتعني بالدرجة الأولى الموعد ، أومدة زمنية ، أو يوماً معيناً ، ويضاهيها في الآرامية عدّان أو عيدان » (٦٤) . ومن ذلك أيضاً قولهم في الأكدية «أدارو أركو ، أي آذار الثاني ، أو التالي » (٦٤) ، ، ترى أيمكن أن نرى في مثل هذا الانتقال الصوتي بعض ما يدل على أصالة العربية وفرعية ما أطلق عليه الساميات أو اللغات الجزرية ؟ على أية حال هي ملاحظة بها حاجة الى تأمل واستقراء . ومن حديث الذال والدال ما أورده ابن جني في سر الصناعة (٦٥) حيث

(٦٣) دروس في علم أصوات العربية ، ص ٦٥ .
(٦٤) من تراثنا اللغوي القديم ، طه باقر ، ص ١٣٣ و ٥٧ و ٤١ و ٣١ ط بغداد ١٤٠٠ هـ .
(٦٥) سر الصناعة ١ / ٢٠٢ .

قال : « وأنشدنا أبو علي لابن مُـقْبِل :

ياليتَ لي سلوةً يُـشفى الفؤاد بها من بعض ما يعتري قلبي من الذَّكَرِ

بالدال ، يريد : الذِّكر ، جمع ذِكرة ، وليس هنا ما يوجب البدل » .

ومن مثل هذا ما ذكره الجاحظ عن بعض غير العرب في نطق ألفاظ بالدال وهي في العربية بالذال ، كالذي حكاه عن أم ولدٍ لجَرير الشاعر ، حين قالت لولدها : وقع الجردان ، بالدال ، وهي تريد الجرذان ، وكقوله « والصقلبي يجعل الذال المعجمة دالاً في الحروف » (٦٦) .

وظاهرة الانتقال من الظاء والثاء والذال الى الضاد الحديثة والتاء والدال ، نسمعها بكثرة في المغرب كما تقدم ، بل انها انتقلت الى الفصيح في غير قراءة القرآن ، حتى لايكاد متحدث بالعربية الفصيحة ينجو من بعض آثار هذا الانتقال ، وقد أشار كانتينو (٦٧) الى الانتقال في هذه الأصوات في اللهجات العامية ، وجعل التحول عن أصوات ما بين الأسنان عاماً ، ولانرى الاطلاق الذي ذكره موفقاً ، فالحروف التي من بين الأسنان باقية في لهجتنا في العراق بصورة تكاد تكون مطلقة ، إلا ما كان في ألفاظ معدودة لا تشكل ظاهرة يوقف عندها ، كابدال الثاء الاولى تاء في ثلاثة وفي ثلاثين ، وابدال الذال دالاً في : أستاذ . إلا أن ذلك ، لم يجد له طريقاً الى ألْسنة المتحدثين بالعربية الفصيحة .

أما إبدال هذه الأصوات أصواتاً صفيرية ، فهو نوع من رجوع الصوت بها الى الوراء أيضاً ، الا انه بدلاً من تحوله الى الشدّة ، حوفظ فيه على الرخاوة ، فجاءت الظاء زاياً مطبقة ، أو إن شئت فقل صاداً مجهورة ، وهذا الصوت نسمعه كثيراً في بعض اللهجات العامية في مصر ، وقد أشار اليه د . تمام حسان (٦٨) . وهو وإن كان شائعاً في عامية القاهرة مثلاً ، الا أننا لانكاد

(٦٦) البيان والتبيين ١ : ٧٣ و ٧٤ .
(٦٧) دروس ، ص ٦٧ .
(٦٨) مناهج البحث في اللغة ، ص ١٢٦ .

نجد له أي أثر في ألسنة الذين ينطقون به في عاميتهم اذا استعملوا العربية الفصيحة . أما الثاء ، فقد جعلت سيناً كما تقدم . ويمكن أن نجد أثراً من ذلك في اللغات الجزرية (السامية) ، وأن كان بصورة غير مباشرة ، فالقاعدة في ذلك قلب الثاء العربية شيناً ، فالقشّاء قِشّو في البابلية ، والكرّاث كرّاشو فيها والكمثرى كَمِشارّو ، فالثاء العربية تكون شيناً في البابلية على وَفْقِ قانون تبادل الأصوات في اللغات الجزرية (٦٩) (الساميات) . وقد أورد ولفنس(٧٠) عدداً من الألفاظ التي بالثاء في العربية وجدناها بالشين في البابلية ، وبالسين في لغات جنوب الجزيرة والحبشة ، فهل يمكن أن يقال إن التحول تم بمرحلتين ، أي : أن الثاء صارت سيناً ثم صارت السين شيناً ؟ وهل يمكن أن يكون ذلك سبباً من أسباب القول بأصالة العربية وفرعية غيرها من اللغات الجزرية ؟ فاثنتان صارت سنيت في جنوب الجزيرة والحبشة ، ثم صارت شنا بالبابلية . وفي هذا الطريق سارت الألفاظ الأخرى ، كثلاث وثمان وثور وثوم ، أي : ثلاث – شلاس – شلاشو ، ثمان – سماني – شمانو ، ثور – سور – شورو ، ثوم – سومات – شومو .

فإن قيل : وما يمنع العكس ؟ أعني أن تكون اللفظ التي بالبابلية هي الأصل ، وانتقلت بالتغيير الى لغة جنوب الجزيرة والحبشة ومنها الى العربية . قلنا : لامانع ، إلاّ أنه لاحجة لهذا القول ، والحجة لِما أوردناه : أنه ليس هناك تقارض بين الثاء والشين فيما نعرفه من أصوات لغوية ، والتقارض كثير بين السين والشين سواء في اللغات الجزرية (السامية) كما ذكر ولفنس (٧١) ، أو في اللفظ العربي اذا رامه غير العربي كما ذكر الجاحظ (٧٢) ، وتحول الثاء الى سين كثير فاشٍ في اللهجات العامية اليوم ، والعكس لايكون إلا لعيب

(٦٩) من تراثنا اللغوي ، ص ١٢٣ و ١٢٨ و ١٣٣ و ٣٦ و ١٣٩ .
(٧٠) تاريخ اللغات السامية ، ١ . ولفنسن ط بيروت ١٩٨٠ ص ٢٨٣ و ٢٨٥ .
(٧١) م . ن ، ص ٢٠ .
(٧٢) البيان والتبيين ، ١ / ٧١ ، ٧٢ ، ٧٤ .

في النطق وروى الجاحظ أن بعضهم يراه أحسن اللثغ ، قال : « وتذاكروا اللّثَغ ، فقال قوم : أحسن اللثَغ ما كان على السين ، وهو أن تصير ثاء...»(٧٣). فأن يكون طريق اللفظ من الثاء الى السين ثم الشين ، أولى من العكس ، لما أوردناه . ومن تحول الثاء الى سين قولهم ؛ : مرس الصبي إصبعه ، فقد نقل السيوطي (٧٤) أن ذلك لغة في مرثه ، أو لثغة .

وأما نطق الذال زاياً ، فيمكن أن نجد شواهده في اللغات الجزرية (السامية) حيث ينطق بالزاي في البابلية ما جاء بالذال في العربية في عدد غير قليل من الألفاظ (٧٥) إن لم نقل إنه يكاد يكون قانوناً عاماً في ذلك ، فالأذن في العربية أُزنو في البابلية ، وأخذ : إخوز ، وذئب : زيبو ، وذكر : زَكَرو . وهكذا .

الرّاء

مما تحول فيه الصوت الفصيح عند بعض العرب عما كان عليه ، ودخل في النطق بالفصيحة في أيامنا ، حرف الرّاء ، وهو (صوت لثوي تكراري مجهور ، ينطق به بترك اللسان . مسترخياً في طريق الهواء الخارج من الرئتين ، فيرفرف اللسان ، ويضرب طرفه في اللثة ضربات مكررة »(٧٦)، ومخرجه على ماذكر سيبويه من طرف اللسان بينه وبين ما فوق الثنايا حيث مخرج النون « غير أنه أدخل في ظهر اللسان قليلاً لا نحرافه الى اللام » (٧٧).

وقد تراجع اللسان نحو الغار في اثناء النطق به في بعض البلاد مع ارتفاع مؤخرته نحو الحنك الأعلى قليلا حيث مخرج الواو ، وقد يزيد ما فيه من

---

(٧٣) م . ن ٢ / ٢٣٢ .
(٧٤) المزهر ١ / ٥٥٧ .
(٧٥) تاريخ اللغات السامية ، ص ٢٨٣ ، ٢٨٧ .
(٧٦) مناهج البحث في اللغة ، ص ١٣٢ .
(٧٧) الكتاب ٢ / ٤٠٥ .

انحراف اللام عند بعضهم ، وعلى ذلك لفظ الكثير ممن سمعناهم من أهل فاس بالمغرب . وقد كان هذا معروفاً عند علماء العربية ، وقالوا عنه إنه لثغ أو ما يشبه اللثغ (٧٨) ، الا انه لم يكن يشكل ظاهرة واسعة تستحق أن يقفوا عندها . فمن ذلك ما ذكره الجاحظ حيث قال : « وأما اللُّثغة في الراء ، فتكون بالياء ، والظاء ، والذال ، والغين وهي أقلها قبحاً ، وأوجدها في ذوي الشرف وكبار الناس وبلغائهم وعلمائهم »(٧٩) . وهي اليوم ظاهرة تستحق الوقوف عندها والتنبيه عليها ، ولاسيما بعد ما سمعنا من نطقها من كثير من المثقفين في المغرب وبصورة خاصة من أهل فاس كما قدمنا ، ذلك أن انتقال هذه اللثغة الى النطق الفصيح على ما هو عليه عندهم اليوم يعرّض الراء الفصيحة للاضمحلال ، ولاسيما أنهم داخلون تحت قول الجاحظ « وهي أقلها قبحاً وأوجدها في ذوي الشرف وكبار الناس وبلغائهم وعلمائهم » ، أو ليست فاس عاصمة المغرب العلمية ؟ إننا نخشى اذا لم يُتدارك الأمر في هذه البلاد أن يصيب الراء فيها ما أصاب الراء في فرنسة ، حيث جعلها أهل با ريس أشبه بالغين ، ثم صارت اليوم لا تدرّس إلا على هذا الأساس . ولا يلفظونها الاغيناً .

الجيم

وصف سيبويه الجيم بالشدة وهو بهذا الوصف عند علماء العربية جميعاً ، قال : « ومن الحروف الشديد ، وهو الذي يمنع الصوت أن يجري فيه وهو الهمزة .. والجيم .. وذلك أنك لو قلت الحج ، ثم مددت صوتك لم يجر ذلك ، ومنها الرّخوة وهي الهاء والحاء ... أجريت فيه الصوت ان شئت .. »(٨٠) وتجربة جري الصوت بالحرف عند الوقف وسيلة عملية

(٧٨) المزهر ١ / ٥٦٦ .
(٧٩) البيان والتبيين ١ / ٣٧ ، وانظر الشواهد التي اوردها ، في ص ٣٥ .
(٨٠) الكتاب ٢ / ٤٦٠ .

للتفريق بين الشـديد والرّخـو ، كما في قولك : الحـج والحس ، فأنت تستطيع أن تمد الصوت بالثاني ، ويتعذر عليك ذلك مع الأول • وقد أطلق بعض المحدثين(٨١) ، على الشديد لفظ الانفجاري ترجمة لقولهم Plosive حيث يحبس الهواء في نقطة مّا من مجرى الصوت ، ثم يفرج عنه فجأة مكوناً صـوتاً انفجارياً • وأطلق على الرّخـو لفظ الاحتاكي ترجمـة لقولهم Fricative حيث يضيق مجرى الهواء في جهاز الصوت في نقطة مابحيث يحدث الهواء المارّ فيها احتكاكاً من غير أن يقفل المجرى قفلاً كلياً في تلك النقطة •

فالجيم في العربية الفصيحة حرف شديـد أو انفجاري ، ويكون بهذه الصفة حين يلفظ معطّشاً(٨٢) ، وعليه لفظ كثير من العرب اليوم كما في أكثر نواحي العراق والخليج العربي والمناطق الجنوبية من المغرب ، الا أن بعض العرب أشربه صوت الشين كما في بلاد الشام ، فتحول الى صوت رخو أو احتكاكي ، وهو غير الصوت الذي وصفه علماء العربية الذين شافهوا العرب ووصفوا أصواتهم • وقد وجدت ذلـك فاشياً أيضاً في النطق الفصيح في بعض نواحي المغرب كالرباط مثلاً ، كما وجدته يلفظ معطشاً شديداً كما وصفه علماؤنا في نواح أخرى منه كما في العيون ، ومن يستمع الى تلاوة المقرىء عبدالحميد احساين وهو من الجنوب في المغرب يجد الجيم الشديدة المعطشة كما وصفها علماء العربية • أما غيره من القرّاء ، فهي عندهم رخوة مشربة صوت الشين ، مظهرة أثر العامية في الفصيح ، حتى وجدنا ذلك الأثر وان كان قليلاً يظهر أحياناً في تلاوة الحاج عبدالرحمن بن موسى وهو من

(٨١) انظر مثلا علم اللغة للسعران ، ص ١٦٦ .
(٨٢) المعطش عندنا هو الجيم الذي لم يُشرب صوت الشين .

عِلّية مجوّدي القرآن الكريم في المغرب •

مشكلة الجيم في أصوات المتكلمين بالفصيحة اليوم ، تناولها بشيء من التفصيل د • ابراهيم أنيس في كتابه الأصوات اللغوية(٨٣) ، فقال : « ليس لدينا من دليل يوضح لنا كيف كان يُنطق بالجيم بين فصحاء العرب ، لأنها تطورت تطوراً كبيراً في اللهجات العربية الحديثة ••• وأبناء العربية في العصر الحديث يختلفون في نطق الجيم حين تعرض لهم في نصوص فصيحة فمعظم المصريين ينطقون بها شديدة . . ومخرجها في نطقهم أقصى الحنك ، وبعض البدو ينطقون بالجيم المسماة الفصيحة .. أما أهل الشام وبعض المغاربة ، فينطقون بها كثيرة التعطيش [الإشراب](٨٤) خالية من الشدة .. ومخرج النوعين الأخيرين وسط الحنك . . . وكان أستاذ الأصوات في لندن بروفسرفرت يقول لي حين تدارسنا هذا الأمر : لو قلت لي : إن نطق الجيم بدون تعطيش [اشراب] هو الأصل ، استطعت في سهولة أن أفسر لك كيف صارت الى التعطيش [الأشراب] ، بل استطعت أيضاً أن أدلّك على نظير لهذه الظاهرة في تطور الأغريقية واللاتينية الى اللغات الأوربية الحديثة . أما اذا قلت العكس أي أن الاصل هو الجيم المعطشة [المشربة] . فعليكم أنتم أن تفسروا هذا ... صوت الجيم (G) في كل من الأغريقية واللاتينية خلا من التعطيش [الإشراب] وظل هكذا في الألمانية ، ولكنه في الفرنسية . والانجليزية تطور في كثير من الكلمات ، فأصابه التعطيش [الإشراب] حين وليه حركة أمامية مثل e ، i ، وظل على حاله ، أي دون تعطيش [إشراب] حين وليه حركة خلفية أو خلا من الحركة .... قمنا بعملية إحصائية للكلمات القرآنية التي تشتمل على الجيم بوصفها فاء للكلمة ، فوجدناها

(٨٣) انظر ، ص ٧٧ ــ ٨٣ .

(٨٤) هذه الزيادة منا ، لأن الجيم المعطش عنده هو الذي أُشرب صوت الشين ، فزدناها للايضاح .

على حسب ما جاء في « المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم » محركة بالفتحة ١١٠٧ مرة ، ومحركة بالكسرة ١٥٧ مرة ، ومحركة بالضمة ١٠٢ مرة ... وليس من المغالاة ان نقيس نسبه حركات الجيم في كل الفاظ اللغة على تلك النسبة القرآنية . ويمكن من أجل هذا أن نقرر – ونحن مطمئنون – أن الجيم حين تُحرك تؤثر في اللغة العربية الحركة الامامية أي الكسرة أو الفتحة المرققة ، وعليه فلسنا ندهش حين نتطور من صوت خال من التعطيش [الإشراب] الى صوت معطش [مشرب] ؛ لأن الحركة الأمامية قد جذبتها الى الأمام ، وأصبح مخرجها أقرب الى وسط الحنك بعد أن كان أقصى الفم ... ويقول القدماء إن الجيم حرف شديد . ومع ذلك يجعلون مخرجه من وسط الفم مع الشين ، وهما أمران متناقضان ... »

وههنا جملة أمور نحب أن نقف عندها ، أولها هذا المصطلح الغريب « التعطيش » . و « الجيم المعطشة » وهو يعني بها الجيم المشربة صوت الشين . وقد اجتهدت في البحث عن هذا المصطلح في كتب المتقدمين حين بحثوا في هذا الصوت كسيبويه والمبرد وابن جني والزمخشري والاستربادي وابن الجزري والسيوطي . فلم أجد له أثراً عندهم ويبدو أنه مصطلح حديث ، أو متأخر أخذه بعض المحدثين ، فشاع ، وأول من وجدته يستخدمه بهذا المعنى المستشرق الألماني برجستراسير في التطور النحوي حيث قال : « وأما الجيم ، فهي عند اكثر العرب معطشة مركبة من لفظي الدال والزاي (٨٥) . أي ال (ge) الفرنسية » (٨٦) ثم تبعه جمهور الذين كتبوا في وصف أصوات العربية بعده .

وقد تحدث علماء العربية عن هذه الجيم ، فذكرها سيبويه في الحروف المستحسنة . وقال عنها : « الجيم التي كالشين » (٨٧) ، ووصفها الرضي

(٨٥) هذا الرمز يعني عنده الجيم المشربة .
(٨٦) التطور النحوي ، ص ١٧ .
(٨٧) الكتاب : ٢ / ٤٠٤ .

الأستربادي بأنها أشربت صوت الشين حيث قال وهو يتكلم على اجتماع الجيم وهي شديدة مع الدال أو التاء وهما شديدتان أيضا في نحو اجتمعوا وأجدر : « لكن الطبع ربما يميل لاجتماع الشديدين الى السلاسة واللين فيشرب الجيم ما يقاربه في المخرج وهو الشين » (٨٨) . ولست أرى أحسن في الاصطلاح من أن تسمى الجيم الشامية الجيم المشربة ، نعني المشربة صوت الشين ، والجيم الفصيحة الجيم المعطشة نعني التي عطّشت فلم تُشرب صوت الشين . أما الجيم المصرية ، فهي كاف مجهورة .

وأما ما أورده عن الاستاذ فرث من تغير صوت الجيم من الفصيحة المعطشة الى الشامية المشربة ، فالذي نراه فيه أن التحول ممكن بين الصوتين ، وليس تحول الصوت بتقدمه الى الأمام أمراً حتمياً . فقد يتقدم الصوت ، وقد يتأخر ، وقد يكون مشرباً ثم يعطش ، أو قد يكون معطشاً ثم يشرب ، كل ذلك ممكن ، ولا دليل على منع أيّ من الممكنات . ألا يُرى أن الجيم المصرية ، وهي كاف مجهورة ، كانت جيماً فصيحة في الأصل ، والفصيحة — كما سيأتي — يمكن أن يقال إنها كانت كافاً مجهورة قبل أن يصف علماء العربية أصواتها ، شأنها في ذلك شأن اللغات الجزرية (السامية) الأخرى ، أي أن الجيم المصرية اليوم كانت قد مرت بالمسار الصوتي الآتي :

گ « في زمن ما قبل عصر وصفها » ← ج « على أيام علماء العربية الأول » ← گ على أيامنا .

ونحن لانخالفه في أن الجيم الفصيحة لم تكن مشربة صوت الشين ثم أشربت فهذا الذي نقول به ، إلا أننا نريد أن ننبه الى جواز الاحتمالات الأخرى ، ولا يبعد عندنا أن يكون صوت الجيم العربية القديمة كصوت الكاف المجهورة أي كالجيم المصرية ، وذلك في زمن متقدم على الزمن الذي عاش فيه علماء

(٨٨) شرح الشافية — للرضي الاستربادي تحقيق محمد نور وصاحبيه ، ٣ / ٢٥٦ ، ط بيروت ١٣٩٥ هـ .

العربية الذين وصفوا أصواتها . ولكننا لا نسلم أنها كانت هكذا يوم وصف علماء العربية أصواتها ، فقد ذكر أن اللغات الجزرية (السامية) القديمة فيها كاف مجهورة يقابلها في العربية صوت الجيم ، قال طه باقر : « توجد في اللغة الأكدية والبابلية والآشورية) كلمة تكاد تطابق العربية «اجانة» و«انجانة»، وهي : أگنو (Agannu) ... والواقع اللغوي أن هذا الصوت أصل في اللغات العربية القديمة (السامية) ، وتكاد العربية الحديثة تنفرد بصوت الجيم » (٨٩) . وهذا الذي ذكره من تباين العربية واللغات الجزرية الأخرى في هذا الصوت ، يقوّيه جملة ألفاظ وردت على هذه الصورة ، منها : مرجان ، وهي في الأكدية : مرگانو ، ونجّـار ، نگار ، وفجـل : فگلو ، وفيه أيضاً تقوية لما ذهب اليه فرث من قدم صوت الجيم التي كالكاف المجهورة وحداثة الجيم المشربة صوت الشين ، وهو ما قلنا إننا نميل اليه ، إلا أن ذلك كان قبل تدوين علمائنا صفات الحروف . هذا على أن هذا الصوت ، أعني الجيم التي هي كاف مجهورة ، كان معروفاً في قبائل العرب يوم وصفت الحروف . ولكنه لم يكن في فصحاء العرب الذين ترتضى ألفاظهم . فقد ذكر سيبويه في الحروف المستقبحة التي ليست كثيرة في لغة من ترتضى عربيته ، ولا تستحسن في قراءة القرآن ولا في الشعر الجيم التي كالكاف والجيم التي كالشين (٩٠) . فالجيم التي كالكاف صوت عرفه علماء العربية منذ سيبويه وجعلوه في الفروع غير المستحسنة .

أما قول د . ابراهيم أنيس : « ويقول القدماء إن الجيم حرف شديد ومع ذلك يجعلون مخرجه من وسط الفم مع الشين ، وهما أمران متناقضان » ، فالذي يظهر لنا أنه ليس هناك أي تناقض في كلام علماء العربية ، ذلك أنهم

---

(٨٩) من تراثنا اللغوي . ص ٥٣ . وانظر في الألفاظ التالية ص ١٤١ و ١٤٧ و ١١٩ .

(٩٠) الكتاب ٢ / ٤٠٤ .

وصفوا الصوت المسموع في زمانهم ، هذا على أنه ليس في الدراسة الصوتية ما يمنع من أن يكون حرفان من مخرج واحد ، أحدهما شديد والآخر رخو ، ذلك أن عضوي النطق في موضع معين اذا اقتربا حتى يحدث الهواء المارّ من بينهما احتكاكا ، كان الصوت الصادر بهذه الهيأة رخواً ، أو احتكاكياً ، فإذا زاد قرب العضوين حتى يتصلا ثم ينفصلا فجأة كان الصوت شديداً أو انفجارياً . ومثال ذلك في العربية غير الجيم والشين والياء ، الهاء والهمزة ، فالهاء من الوترين باقترابهما حتى يحدث الهواء المار من بينهما احتكاكا من غير أن يؤدي الى اهتزازهما . أما الهمزة فتكون بانغلاق الوترين انغلاقاً تاماً ثم انفراجهما ، فالهمزة من مخرج الهاء إلا أنها شديدة ، والهاء رخوة . وهذا مما لا خلاف فيه على ما نعلم . كما أننا نرى في العلاقة التعاملية بين الجيم وكل من الشين والياء ما يؤكد مذهب علماء العربية في اتفاق هذه الأحرف في المخرج ، ذلك أنهم نصوا على أن « أصل القلب في الحروف إنما هو فيما تقارب منها ، وذلك : الدال والطاء والتاء ، والذال والظاء والثاء ، والهاء والهمزة ، والميم والنون ، وغير ذلك مما تدانت مخارجه » (٩١) . وقد نُصّ على مجيء الجيم بدلاً من الياء في نحو قوله (٩٢) : « عمّي عُوَيْفٌ وأبو عَلِجّ ، يريد : وأبو علي ، وقوله : مرّج ، يريد : مرّيّ ، وقوله : قرون الأجّل ، يريد : الأيّل ، وقوله : « لاهُمَّ إن كنت قَبِلت حجّتِجْ» ، يريد : حجتي .

ومما ورد عكس ذلك، أعني ما أبدلت الياء فيه جيماً ما رواه القالي (٩٣) من قول أم الهيثم :

اذا لم يكن فيكن ظل ولا جنى فأبعدكنّ اللهُ من شيَرات

(٩١) سرّ الصناعة ١ / ١٩٧ .
(٩٢) م . ن ١ / ١٩٢ — ١٩٣ .
(٩٣) الأمالي لابي علي القالي ٢ / ٢١٤ ، مصورة عن طبعة مصر غير مؤرخة .

تريد : شجرات ،وقولها «شيرة» في : «شجرة» ، وتصغيرها على شييرة ، وهو ابدال فاشٍ في كلام الناس اليوم في مناطق كثيرة من العراق والخليج (٩٤) .

أما الجيم والشين ، فقد اوردنا آنفاً كلام العلماء على اتصال الجيم بالشين ، وكونها تشرب صوت الشين لقربها منها . ولولا ذلك القرب ما أشربت الصوت . كما ورد عن العرب ابدال الجيم شيناً في قوله :

(اذْ ذاك اذحبل الوصال مُدْمَشُ

أي : مُدْمَج . فالشين بدل من الجيم » (٩٥) .

وسواء نطقها شيناً خالصة ، وهو ما نميل اليه ، أم جاء بها جيماً مشربة كما رجّحه د . أحمد الجندي (٩٦) وملنا اليه في دراسة سابقة (٩٧) ، فالحاصل اختلاط صوت الجيم بالشين ، ممّا يقوي مذهب علماء العربية في وصف مخرجها ، وأقول إنني أميل الى أنه أخلصها شيناً في هذا الرجز ، لأن الجيم التي كالشين أي المشربة عرفها علماء العربية كما تقدم ، فلا يتصور أنها تلتبس عليهم في هذا الموضع فيحسبونها شيناً خالصة .

أما في التعامليات ، فقد تكلّم سيبويه على إدغام الجيم في الشين ، وجعل الادغام والبيان حسنين . قال : « الجيم مع الشين كقولك : ابعجّ شبّاً . الادغام والبيان حسنان . لانهما من مخرج واحد ، وهما من حروف وسط اللسان » (٩٨) . كما ذكر أن الشين لا تدغم في الجيم ، وكذلك الياء لا تدغم في الجيم ، وبيّن العلة في ذلك ، مما يدل على أنه كان ينبغي أن يحدث ادغام على الأصل في قرب المخرج ، الا أن ما في الشين من تفشٍّ وما في الياء من لين منعا ذلك (٩٩) . هذا على أن بعضهم قد أدغَم في الشين الجيم قال

(٩٤) انظر ابدال الجيم وتحولها في دروس في علم اصوات العربية ، ص ٨٨ – ٩٦ .
(٩٥) سرّ الصناعة ١ / ٢١٥ .
(٩٦) اللهجات العربية في التراث . ص ٣٥٦ .
(٩٧) الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني . ص ١٢٨ .
(٩٨) الكتاب ، ٢ / ٤١٤ . (٩٩) م . ن ٢ / ٤١١ .

« والشين لا تدغم في الجيم ، لأن الشين قد استطال مخرجها لرخاوتها ... فكرهوا أن يدغموها في الجيم .. وقد تدغم الجيم فيها .. وذلك أخر — شَبثا » (١٠٠) . فالجيم الساكنة اذا وليها شين ، قد تدغم فيها كما في هذا المثال أخرج شبثاً ، وكما تقدم من قوله : ابعج شبثا . أما العكس ، فلا . ومما ورد من ادغام الجيم في الشين ما ذكره الزمخشري حيث قال : « .. وفي الشين نحو : أخرجْ شبثا ، قال الله تعالى : « أَخْرَجَ شَطْأَهُ » (١٠١) . وقد كرر ابن يعيش كلام الزمخشري من غير اشارة الى القراءة ، فقال : « وتدغم في الشين نحو : اخرجْ شبثا ، قال الله تعالى (كزرع أخرج شطأه) وذلك لقرب مخرجيهما » (١٠١) وذكر الاستربادي ادغام الجيم في الشين مكرراً عبارة سيبويه ، ولم يشر الى قراءة (أخرج شَطْأَه) على أنه أشار ألى أن أبا عمرو أدغم الجيم في التاء ، قال : « وقد ادغمها أبو عمرو في التاء في قوله تعالى : « ذِي المَعارِجِ تعرُجُ » وهو نادر » (١٠٢) .

وذكر ابن الجزري الادغام في المتحركين ، وسماه الادغام الكبير ، وذكر أن وجهه طلب التخفيف وقال : « فأما رواته فالمشهور به والمنسوب اليه والمختص به من الائمة العشرة هو أبو عمر وبن العلاء وليس بمنفرد به..»(١٠٣)، وقال في موضع آخر : «والجيم تدغم في موضوعين : في الشين (أخْرَجَ شَطْأَهُ) ، وفي التاء (ذي المَعارِج تعرُجُ) (١٠٤) .

ننتهي من كل هذا الى وضوح مخرج الجيم والشين في وصف علماء العربية وأن الجيم التي وصفوها حرف شديد من مخرج الشين والياء ، وهو الذي عليه نطق كثير من العرب اليوم ، ومنهم أكثر العراقيين ، وهي جيم لاتخلو من

(١٠٠) م . ن ٢ / ٤١٢ .
(١٠١) شرح المفصل ١٠ / ١٣٨ .
(١٠٢) شرح الشافية ٢٧٨/٣ .
(١٠٣) النشر ١ / ٢٧٥ .
(١٠٤) م . ن ١ / ٢٨٩ .

أثر صوت الشين ، إلا أنه بالقياس الى الجيم الشامية لايكاد يذكر ، وقد تنبه الى وجود هذا الصوت الفصيح ، كما وصف قديماً ، في لهجة العراقيين د . عبد الرحمن أيوب ، وقد درّس في العراق ، حيث قال عن الجيم : « الصوت الصلب الانفجاري المجهور ، ويوجد في أول الكلمة العراقية : جيكاره ، وأول الكلمة الفصيحة جمل » (١٠٥) .

واذْ قد انتهينا الى تقرير صوت الجيم الفصيحة وأنها شديديدة من مخرج الشين ، لم يبق إلا أن نقف قليلاً عند جعلها مع ال التي للتعريف كالحروف الشمسية في نطق الكثير من أبناء العرب اليوم ، وهي عند القدماء قمرية ينبغي أن تحقق معها اللام ولا تدغم فيها ، والذي يتّجه لنا في هذا أن اشرابها صوت الشين عند الكثرين جعلها تأخذ حكم الشين في الادغام عند من يشربونها الصوت كما في بلاد الشام واكثر نواحي المغرب ، فيقال في الجمل أجّمل بجيم شامية مشددة ، أما الذين يأتون بها كما وصفت الفصيحة فالذي يبدو أن كونها من مخرج الشين مع وجود أثرها فيها مهما كان قليلاً قد أثّر في الصوت عند أكثرهم ، نستثنى من ذلك قرّاء القرآن ، والحريصين على فصاحة النطق .

ولايمكن أن يكون هذا النطق لال مع الجيم دالاً على أن الجيم القديمة كانت تنطق كافاً مجهورة كما حاول بعضهم أن يستدل به (١٠٦) وانك « لو نظرت الى الحروف القمرية لوجدتها تخضع للتقسيم التالي : حلقية / شفوية .

ـ الحلقية : أ ، ع ، هـ ، ى ، ح ، خ ، غ ، ك ، ق ، گ .
ـ الشفوية : و ، ب ، ف ، م .

فلو كانت الجيم شجرية لكانت وحدها شاذة عن هذا التقسيم ، علماً بأن الجيم المصرية حلقية ولايختلف في قمريتها . اذن يسعنا القول إن الجيم المصرية هي

(١٠٥) محاضرات في اللغة ، ص ١٠٠ .
(١٠٦) انظر : بحوث لسانية ـ نعيم علوية . ص ١٤٩ ـ ، ط بيروت ١٤٠٤ هـ .

القمرية ، وان الجيم الشجرية والجيم الدالية ليستا قمريتين بل شمسيتان .. (١٠٧)

وبصرف النظر عن التخليط العجيب في المصطلحات ، وجعل الحلق يتسع ليشمل القاف والكاف ، والكاف المجهورة ، والياء . نقول : الياء شجرية ، والجيم الفصيحة شجرية أيضاً ، فهما من مخرج واحد ، أجمعت على ذلك الدراسة الصوتية القديمة والحديثة ، والياء قمرية ، فالجيم الشجرية معها . أما الشين وهي الحرف الشجري الثالث ، الذي كان ينبغي أن يكون قمرياً أيضاً ، فإن تفشّيه واستطالة الصوت به حتى وصل الى مخرج الطاء وهي حرف شمسي ، جعله شمسياً ، بهذا علل سيبويه الأمر كما سيأتي .

والجيم المصرية هي الكاف المجهورة . وقد عرفها علماء العربية كما تقدم ، ولم يخلطوا بينها وبين الجيم الفصيحة . وقد وفينا هذا الأمر حقه فيما تقدم كما نظن . أما علة الادغام في الشمسية وادخال الشين والضاد فيها ، فلم أجد أحسن مما قاله سيبويه في ذلك حيث قال : « ولام المعرفة تدغم في ثلاثة عشر حرفاً ، لايجوز فيها معهن الا الادغام ، لكثرة لام المعرفة في الكلام ، وكثرة موافقتها لهذه الحروف ، واللام من طرف اللسان ، وهذه الحروف أحد عشر حرفاً منها حروف طرف اللسان ، وحرفان يخالطان طرف اللسان ، فلما اجتمع فيها هذا وكثرتها في الكلام لم يجز الاّ الادغام . . . واللذان خالطاها الضاد والشين ، لان الضاد استطالت لرخاوتها حتى اتصلت بمخرج اللام ، والشين كذلك حتى اتصلت بمخرج الطاء » (١٠٨) . فالأمر مرتبط اذن بقرب المخرج وكثرة الاستعمال ، والنص بعد من الوضوح بحيث لامكان معه لشرح أو ايضاح . وقد تبع سيبويه في هذا التعليل من جاء بعده من علماء العربية ، ومن هؤلاء المبرد في المقتضب (١٠٩) .

---

(١٠٧) م . ن ، ص ١٥٠ .
(١٠٨) الكتاب ٢ / ٤١٦ .
(١٠٩) المقتضب للمبرد تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة ، ١ / ١٣ ، ط القاهرة ١٣٨٥ هـ .

وهكذا ننتهي الى أن الجيم الفصيحة التي وصفها علماء العربية كما كانت في زمانهم هي ما نسمعه اليوم من مجيدي القرّاء ، وهي صوت مجهور شديد من مخرج الشين والياء ، وان لام التعريف ينبغي أن تظهر معه ، كما ينبغي أن يطوّع أبناء العربية ألسنتهم ليأتوا به على صفته التي أوردها علماء العربية ، فيه من صوت الشين ما لا يكاد يذكر . وما قيل عن الجيم ، يقال عن الظاء والذال والثاء ، فبعد أن دخل هذه الأصوات التحول في اللهجات العامية ، استطاعت المتحولة أن تتسلل الى النطق الفصيح ، ولا نشك في أن العمل على طردها ليس بالأمر السهل . فقد رأينا بعض من يدرسون الأصوات اللغوية لايكاد يحكم التفريق بينها ، وقد كنت أشفق على طلبتي وهم في السنة الرابعة بكلية الآداب في بلد عربي افريقي ، اذ يكتبون البحوث ، فيعجم بعضهم كلمات أصلها بالدال المهملة ، ويهمل أخرى هي بالذال المعجمة . وهكذا في التاء والثاء ، والضاد والظاء . ولكن الاحساس بالمشكل ، وبذل الوسع في علاجه ، كان كفيلاً مع الأيام بتذليله .

البعد المستقبلي

رأينا كيف أن العاميّة استطاعت أن تدخل عدداً من أصواتها على الفصيحة في نطقنا اليوم ، وجعلنا ذلك تحت المظهر الواقعي . أما البعد المستقبلي ، فإن الأصوات التي نعرض لها فيه أصوات وجدت مكانها في ألسن الناس في أحاديثهم بلهجاتهم ، الا أنهم يتخلصون منها عندما يتحوّلون للحديث باللغة الفصيحة . ولذا كان رصد الأصوات العامية التي حلّت محل الفصيحة فيها جزءٌ من التنبيه على خطر هذه الأصوات في المستقبل ، فهي أصوات متحولة عن الفصيحة مازالت تنمو على ألسن الناس في أسواقهم وبيوتهم . ولا يبعد ، إذا لم يُتنبه اليها ، أن تتسرب ببطء نحو اللفظ الفصيح ، كما تسربت الأصوات التي أشرنا اليها آنفاً .

فمن ذلك مثلاً ما يقع للهمزة في اللهجات العامية ، فهي كما وصفها علماء

العربية حرف حلقي شديد مجهور ، وهي أول حروف الحلق . وقد دلت الدراسة الحديثة على أنها تولد بانغلاق الوترين الصوتيين ثم انفراجهما فجأة من غير أن يهتز الوتران . ونحن نميل الى ابقاء صفة الجهر للهمزة مع عدم اهتزاز الوترين في نطقها موافقة لعلماء العربية ، وكذلك لأن الوترين يغلقان ويفتحان بها ، فهي حركة وأن اختلفت عن الاهتزاز ، الا أن ذلك أولى من جعلها مهموسة مع ما في الوترين من حركة انطباق وانفتاح بها ، كما أنه أولى من جعلها صنفاً ثالثاً ليس مهموساً ولا مجهوراً (١١٠) .

وأهم التحولات التي تشيع لهذا الصوت في اللهجات : تسهيله ، وابداله عيناً ، أما التسهيل نحو : مومن ، وراس ، فلغة للعرب شائعة منذ القديم ، وهو أمر أراه سائغاً لو انتقل الى الفصيح ، كيف لا وقد قرئ كتاب الله تعالى بهذه اللغة في قراءة سبعية تنتشر اليوم في نواح كثيرة من المغرب العربي ، وهي قراءة (وَرْش) عن (نافع) (١١١) .

وأما إبداله عيناً ، كقولهم (أسعلك سعال) يريدون : أسألك سؤالاً ، كما نسمع ذلك من البدو في العراق ، وفي صعيد مصر مثلاً ، فهو أيضاً له أصل قديم ، إلا أنه قليل ، وقد أطلق على هذا الإبدال : عنعنة تميم ، واستُشهد لذلك بقول ذي الرُّمّة : (١١٢)

أعَنْ ترسّمتَ من خرقاء منزلةً ماءُ الصبابة من عينيك مسجومُ ؟

قال ابن جني نقلاً عن الأصمعي : « فأما عنعنة تميم ، فإن تميماً تقول في موضع « أن » : « عن » ، وتقول : ظننت « عَنّ » عبد الله قائم ، قال : وسمعت ابن هَرْمَةَ ينشد هارون :

---

(١١٠) انظر تفصيل ذلك في الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني ، ص ٣١٤ .

(١١١) انظر : التعريف في اختلاف الرواة عن نافع للداني تحقيق الهاشمي ، ص ٢٠٩ ــ ٢٤٧ ، ط المغرب ١٤٠٣ هـ .

(١١٢) سرّ الصناعة ١ / ٢٣٤ .

أعن تغنّت على ساق مطوّقة ورقاء تدعو هَديلاً فوق أعواد »(١١٣) ؟ ولعل قلّة ذلك هو الذي جعل ابن فارس يوردها في باب اللغات المذمومة . وقد نسبها الى تميم (١١٤) . اما الثعالبي ، فقد جعلها في قضاعة (١١٥) ، وأوردها تحت فصل : في حكاية العوارض التي تعرض لألسنة العرب . وقد جاء هذا الفصل في الكتاب بين فصلين ، فقبله الفصل الثامن والعشرون وهو في عيوب اللسان ، وبعده الفصل الثلاثون وهو في ترتيب العيّ ، ولانشك في أن لهذا الترتيب معناه في نظرة الثعالبي للعنعنة .

وذكرها السيوطي بقوله : « العنعنة ، وهي في كثير من العرب في لغة قيس وتميم ، تجعل الهمزة المبدوء بها عيناً ، يقولون في : أنّك « عنّك » (١١٦) . وقوله : في كثير من العرب ، غريب ، إذ كيف يكون ذلك في كثير من العرب ، ثم يبحثه تحت عنوان : معرفة الرديء المذموم من اللغات ؟ .

هذه الظاهرة القديمة ، مازالت آثارها في اللهجات العامية ، بل هي كما يبدو قد تعدّت الهمزة في أول الكلام ، الى غيرها ، كما في قول بعضهم : سُعال ، وقَراعة ، في سؤال ، وقِراءة . وهذا الإبدال مما ينبغي أن يكافح إن حاول أحد أن ينقله الى الفصيح ، ولا يُتسامح فيه .

ومن ذلك إبدال الجيم ياء ، وذلك فاشٍ اليوم في بَدْو العراق والمناطق الجنوبية منه ، وفي بلدان الخليج العربي ، فيقولون مثلاً : بيناك وما بيتنا ، أي : جئناك ، وما جئتنا ، وهي لهجة قديمة أيضاً ، ورد عليها قول ام الهيثم :

---

(١١٣) م . ن ١ / ٢٣٥ .
(١١٤) الصاحبي لابن فارس تحقيق الشويمي ، ص ٥٣ ، ط بيروت ١٣٨٣ هـ .
(١١٥) فقه اللغة للثعالبي مصورة عن الكاتوليكية ، ص ١٠٧ .
(١١٦) المزهر ١ / ٢٢١ – ٢٢٢ .

اذا لم يكن فيكنّ ظل ولا جنىً فأبعدكنّ الله من شيَرات

وقد نسب القالي هذا الإبدال الى تميم ، قال : « . . . ويمكن أن يكون جارّ لغة في يارّ ، كما قالوا : الصهاريج والصهاريّ ، وصهريّ ، وصِهريّ لغة تميم . . » (١١٧) .

وهذا الإبدال أيضاً مما ينبغي أن يوقف على العاميات ، ولا يفسح له في الفصيح .

ومن ذلك أيضاً صوت القاف ، فهو في الفصيح صوت لهوي شديد (انفجاري) مجهور على وَفق معنى الجهر عند القدماء ، مهموس بمصطلح المحدثين ، ويولد الصوت بأن يتصل أقصى اللسان باللهاة (وهي المنطقة الرخوة من الحنك التي تقابل أقصى اللسان) مسبباً حبساً تاماً للهواء ، ثم ينفصل فجأة . هكذا كان ينطق الصوت في القديم ، وهكذا هو عند العرب اليوم في الفصيح أما قول الدكتور ابراهيم أنيس : « وقد تطورت القاف في اللهجات العربية الحديثة تطوراً ذا شأن ، لانستطيع معه أن نؤكد كيف كان ينطق بها الفصحاء من عرب الجزيرة في العصور الاسلامية الاولى » (١١٨) فليس أوضح في بيان سهوه من قول سيبويه « إنك لو جافيت بين حنكيك فبالغت ، ثم قلت : قق قق ، لم تَرَ ذلك مخلاً بالقاف ، ولو فعلته بالكاف وما بعدها من حروف اللسان ،أخلّ ذلك بهنّ » (١١٩)

أما في اللهجات العامية ، فالقاف همزة عند بعضهم كما في اكثر مدن مصر ، قال : آل ، وكاف عند آخرين ، كما في بعض نواحي فلسطين ، قلت له : كلتْ لُه ، وكاف مجهورة في اليمن ، وفي صعيد مصر ، وفي

---

(١١٧) الامالي ٢ / ٢١٤ .
(١١٨) الاصوات اللغوية ، ص ٨٤ .
(١١٩) الكتاب ٢ / ٤٢٧ . وانظر التحول والثبات في اصوات العربية ، ٢٨٤ ـ ٢٩١ .

أغلب نواحي العراق ، والخليج العربي ، قال : گال ، والعراقيون يفخمون لها اللام في بعض الالفاظ ، قلب : گلب ، بلام مطبقة ، وسمعت بعض الدوريين يقول : گلّي ، بكاف مجهورة ولام مطبقة ، أي : قال لي .

أما جعل القاف كافاً . فهو قديم . وقد أورد القالي ألفاظاً جاءت بالقاف والكاف رواها عن الأصمعي وأبي عمرو الشيباني ، والفراء ، وأبي زيد ، وعن مصحف ابن مسعود . فمن ذلك قوله : « قال أبو علي : قال الأصمعي : يقال إناء قربان وكربان . . . وقال ابو عمرو الشيباني : عربي كُحّ وعربية كُحّة ، وقال أبو زيد : أعرابي قُحّ . . . وقال الفراء . . . كشطت عن جلده وقشطت . . وفي مصحف ابن مسعود : قشطت . . . (١٢٠) . وقد نص ابن جني على أن القاف لاتكون بدلاً « يكون أصلاً ،لا بدلاً ، ولا زائداً » (١٢١) . وقد ترجح عندنا في دراسة سابقة « أن أية لهجة منسوبة أو غير منسوبة وردت فيها لفظة بحرف، وهي بغيره في غيرها ، والمعنى واحد فيهما . إنما كان ذلك في الاصل إبدالا ، ونحاول تفسير ذلك الإبدال فيهما ، فإذا كان بين الحرفين اتفاق أو تقارب في المخرج أو الصفة كان هذا التقارب او الاتفاق هو الداعي الى الابدال . . » (١٢٢) . وهذا الإبدال وإن كان وارداً عن العرب الا اننا لانرى إباحته في الفصيح في غير المسموع ، لأن المصير الى الكثير الشائع ، لا القليل النادر ، ولا سيما أن إبدال القاف كافاً في غير ماسمع من العرب إنما يكون لكنة أعجمية ، قال الجاحظ : « وعبيد الله بن زياد يرتضخ لكنة فارسية . . . ومنهم أبو مسلم صاحب الدعوة ، وكان حسن الألفاظ جيد المعاني ، وكان اذا اراد أن يقول : قلت لك ، قال : كُلْت لك . فشارك في تحويل القاف كافاً عبيد الله بن زياد ، كذلك

(١٢٠) الأمالي ٢ / ١٣٩ .
(١٢١) سر الصناعة ١ / ٢٧٨ .
(١٢٢) الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني ، ص ٩٥ .

خبرنا أبو عبيدة . قال : وإنما أُتي عبيد الله بن زياد في ذلك أنه نشأ في الأساورة عند شيرويه الأسواري ، زوج أمه مرجانة » (١٢٣) .

وأما جعل القاف كافاً مجهورة ، فهو قديم أيضاً ، وقد جعل في الأصوات الفرعية . قال الاستربادي : « ومن المتفرعة : القاف بين القاف والكاف»(١٢٤). ولاشك في أن اهتزاز الوترين بالكاف المجهورة هو الذي يجعل متذوقها يحس أنها أعمق من الكاف المهموسة ، فتكون المجهورة بين القاف والكاف ، في التجربة الذاتية ، وإلا فهما كاف واحدة يهتز الوتران معها فتكون مجهورة ، وهي مهموسة من غير اهتزاز الوترين . وقد نسب ابن دريد هذه اللغة الى بني تميم « يلحقون القاف بالكاف حتى تغلظ جداً فيقولون القيوم ، فتكون بين الكاف والقاف وهذه لغة تميم » (١٢٥) . وهذا الإبدال أيضاً ، ينبغي أن يتنبه اليه فلا يفسح له في الاستعمال الفصيح .

وأما جعل القاف همزة ، فلم أجد له أصلاً قديماً . واذا كنا قد حذّرنا من دخول الابدال الذي ورد عن العرب في الفصيح اليوم ، فمن باب أولى نحذر من دخول ما لا أصل له ، على أنه يمكن أن يعلل برجوع الصوت من اللهاة الى الوترين للاتفاق في صفة الشدة .

ومما لم نجد له أصلاً قديماً من إبدال القاف ، ما نسمعه من بعض البدو في العراق من إيقاع التبادل الصوتي بين القاف والغين ، فالعراق العراغ ، وغانم : قانم . ومما يُستندر به أنه قيل لأحدهم : لم تجعلون القاف غيناً ، والغين قافاً ؟ فقال : أستقفر الله ! من يغولُ ذلك ؟ يريد أستغفر الله ، مَنْ يقول ذلك ؟ وسمعت بعضهم يقرأ قوله تعالى : « فكان من المغرقين » « من المقرقين » بقافين ، وأرهقني حتى لقنته إيّاها مقطّعة مُغ ، رَ ، قين ، فإذا

(١٢٣) البيان والتبيين ١ / ٧٢ ـ ٧٣ .
(١٢٤) شرح الشافية ٣ / ٢٥٧ .
(١٢٥) الجمهرة لابن دريد مصورة عن حيدر أباد ١/٥ ، ١٣٤٥هـ .

وصل أعادها قافين . وهذا أيضاً مما ينبغي أن نتنبه اليه خشية تسربه الى الفصيح . وعلى أية حال سواء لم يكن لنطق القاف اللهجية اليوم أصل قديم كنطق القاف همزة ، أو كان له أصل قديم كنطقها كافاً مهموسة أو مجهورة ، فلا يجوز نقل ذلك الى الفصيح ، مادام العرب جميعاً على اختلاف نطقهم الصوت في لهجاتهم مجمعون على نطقه قافاً فصيحة في لغة الأدب .

ومن الأصوات التي تشيع في بعض اللهجات اليوم ، الكاف التي سماها سيبويه الكاف التي بين الجيم والكاف ، وجعلها في الحروف التي لا تستحسن في قراءة القرآن ولا في الشعر (١٢٦)، وقال كانتينو عن هذا الصوت «فالمفروض أن يكون هذا النطق هو نطق الكاف تْش » (١٢٧) .

وقد مال الكتّاب في النواحي التي ينطق فيها هذا الصوت كما في العراق ، وما جاوره من دول الخليج الى كتابته جيماً بثلاث نقاط (چ) فكاف المؤنث تؤول في هذه النواحي باطلاق الى هذا الصوت (چ) ، أبوك : أبوچ ، وكذلك في الفاظ كثيرة في غير كاف المؤنث : الديك : الديچ ، الكلب : الچلب ، الركاب : الرچاب ، الكفن الچفن ، الله يكفيك شرّه : الله يچفيك شرّه .

ومن الإبدال الذي يكاد يكون مطّرداً في اللهجات العامية اليوم ، وصرنا نسمعه من بعضهم في الفصيح يتملّح به ، إبدال الحركة المزدوجة امالة ، أو تفخيما ، والمزدوج كما هو معلوم الصوت المكوّن من حركة قصيرة — هي الفتحة — بعدها حرف لين ساكن (١٢٨) . كالصوت الذي بين اللام والسين في كلمة : لَيْسَ . أو الذي بين القاف والميم في لفظ قَوْم . والملاحظ أن

(١٢٦) الكتاب ٢ / ٤٠٤ .
(١٢٧) دروس في علم أصوات العربية ، ص ١٠١ .
(١٢٨) جعله فندريس حرف لين واحداً مكوناً من حركتين ، انظر : اللغة ، ص ٥٤ .

اللين اذا كان ياء مالت اللهجة العامية به الى صوت الامالة المعروف في العربية الفصيحة ، واذا كان واواً ، مالت به الى صوت التفخيم الذي قال عنه سيبويه إنه لغة أهل الحجاز ، فلا تكاد تسمع في لهجات العرب العامية اليوم كلمة : بَيْت ، ويالَيْت ، وسَيْف ، وضَيف ، وعَيْن ، وطَيْر . . . الخ ، بل تسمع لفظة : بِيَت ، ويالِيت ، وسِيف ، وضِيف ، وعِين ، وطِير . كذلك لاتكاد تسمع كلمة : قَوْم . ودَوْر ، وفَوْق ، ولَوْم ، وشَوْق ، ونَوْم . . . الخ بل تسمع لفظة : قُوَم ،ودُور ، وفُوق ، ولُوم ، وشُوق . ونُوم ، وهكذا ، اللهم إلا في لهجة البدو ، فإنك تسمع منهم المزدوج كما هو في الفصيح .

وصوتا الإمالة والتفخيم ، من الأصوات العربية القديمة . وقد ذكرهما سيبويه وعدّهما في الأصوات التي يؤخذ بها وتستحسن في قراءة القرآن والاشعار ، قال : « والألف التي تمال إمالة شديدة . . . وألف التفخيم يعني بلغة أهل الحجاز في قولهم : الصلاة والزكاة والحياة » (١٢٩) ، الا أن ماذكره سيبويه لم يكن خلفاً من مزدوج كما هو في اللهجات اليوم ، بل الإمالة كانت أن تنحو بالألف نحو الياء في مثل : سار وباع ، فنقول : سِير وبِيع ، أي : أن يتحول صوت الألف الى صوت يماثل الصائت الذي نسمعه في لفظة « bird » الإنجليزية ، فيكون بين الياء والألف . وعلى هذا رسمت كلمات بالياء في القرآن الكريم ، ونطقها بالألف رعاية لقراءة الإمالة فيها (١٣٠) كما في فواصل سورة الشمس : « والشَّمْسِ وضحيها ، والقَمَرِ إذا تليها ، والنَّهارِ اذا جلّيها ، والليلِ اذا يَغْشيها . . . » والتفخيم أن تنحو بالألف نحو الواو ، أي : أن يلفظ صوت الألف صوتاً بين الألف والواو ، كما في الصائت الذي نسمعه في لفظة « ball » الإنجليزية ، وهكذا رسمت

(١٢٩) الكتاب ٢ / ٤٠٤ .
(١٣٠) انظر : رسم المصحف ، غانم قدوري ص ٣١٥ ، ط بغداد ١٤٠٢ هـ .

كلمات في القرآن الكريم بالواو رعايةً لقراءتها مفخمة ، على ما ذهب اليه غير واحد من علماء السلف (١٣١) ، كالصلَوة ، والزكَوة ، والحيَوة .

وهكذا يتبين لنا أن صوت الإمالة وإن كان واحداً في القديم وفي اللهجات اليوم الا أن هناك اختلافاً في الأصل الذي ينشأ عنه، فهو في الإمالة الفصيحة التي أجازها علماء العربية يأتي خلفاً من الألف . أما في اللهجات اليوم ، فهو خلف من مزدوج أو مركبّ « diphthong » ، وكذلك القول في صوت التفخيم .

ولو أردنا أن نتقصّى كل الإبدالات التي دخلت في اللهجات سواء في الصوامت أم الصوائت . لطال بنا الأمر ، فنكتفي بما أوردناه ، وننبه على ثلاثة أمور :

الأول : أن يكون ذوو الغيرة على العربية على حذر دائم من تسرب الأصوات اللهجية الى الفصيحة . والتنبيه عليها ، ومكافحتها ، ورحم الله أبا منصور الثعالبي (٤٢٩ هـ) اذ قال : « إنه عزّ وجلّ لما شرّف العربية وعظّمها . ورفع خطرها وكرّمها . قيّض لها حفظةً وخزَنةً من خواصّ الناس . وأعيان الفضل . وأنجم الأرض » (١٣٢) .

الثاني : أن هذه الإبدالات اللهجية التي ذكرناها ، ليست مطّردة ، فالذي يبدل القاف همزة مثلاً ينطق بالقاف الفصيحة كلمة القاهرة ، والمقدّم — لرتبة عسكرية — ، والقطاع الخاص ، والقوى العاملة . . . الخ مما يدل على إمكان إعادة الصوت الفصيح الى اللسان اللهجي ، بالجهد والتخطيط والمثابرة .

الثالث : أن محاولة التملّح بإدخال بعض هذه الاصوات اللهجية على الفصيحة فيه خطورة كبيرة على مستقبل أصواتها ، ولاسيما اذا وقع ممن له

(١٣١) م . ن ، ص ٣٣١ .
(١٣٢) فقه اللغة : المقدمة .

في الشعر منزلة ، وقد كنا نسمع بعضهم يتقصد التحول عن المزدوج الى صوت الإمالة أو التفخيم ، وصرنا نسمع ذلك من الكثيرين من صغار الشعراء حرصاً منهم على المحاكاة .

إن التطور الذي دخل أصوات العربية في لهجاتها العامية تطور طبيعي في اللغات ،ودخوله في لغة الأدب الفصيحة كان يمكن أن يكون طبيعياً لولا ما خصّت به هذه اللغة من ارتباط بالعقيدة ، جعل الحرص على ثبات أصواتها مبدأ ثابتاً عند أهلها ، كي لاينفرط عقد الارتباط بكتاب الله تعالى ، ثم بخلاصة تجارب أجيال متعاقبة خلال أكثر من خمسة عشر قرناً من الزمان ، ولتبقى اللغة رابطة متينة بين أبناء هذه الأمّة الكريمة .